

الفصل الأول

الحياة السياسية

١

استيلاء الترك على مقاليد الحكم

مرّ بنا في العصر العباسي الأول كيف هيأ العباسيون لقيام دولتهم عن طريق الدعوة السريّة لإمام هاشمي يخلّص المولى فُرْسًا وغير فرس من حكم بني أمية الجائر، محقّقاً لهم المساواة المشروعة - بحكم الإسلام - بينهم وبين العرب في جميع الحقوق الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. وسرعان ما أقبلت الجيوش الخراسانية مكسحة كل ما لقيها من مقاومة للدولة الأموية حتى قضت عليها قضاء مبرماً. وأعلن العباسيون أنهم أصحاب الحق الشرعي في الحكم والخلافة، وبذلك استأثروا بها من دون أبناء عمهم العلويين، مما جعل كثيرين منهم يثورون عليهم طوال العصر، كما جعل أنصارهم يدعون لبיתهم العلوي سرّاً كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً، في حين مضى العباسيون يعلنون أنهم أصحاب حق إلهي في الحكم والسلطان وتمادوا في حكم استبدادي أشد ما يكون الاستبداد محيطين أنفسهم بكثيرين من الحجاب، أما الشعب فلم يزد في رأيهم عن أن يكون أدوات مسخرة لجمع الخراج والضرائب الفادحة، مما دفع لقيام ثورات إيرانية مختلفة، على نحو ما صورنا ذلك في كتاب العصر العباسي الأول. وحقاً كانت أعلى المناصب وأكثرها في أيدي الفرس، وكان منهم أكثر الوزراء والقواد، غير أن العباسيين نكبوهم نكبات متوالية، على نحو ما هو معروف عن نكبة البرامكة ونكبة بني سهل. ونشب من جرّاء ذلك عداء شديد بين الفرس والعرب، فالعرب يريدون استرداد مجدهم في العصر الأموي والفرس لا يكتفون بما لهم من مجد حادث في الدولة، وكأنهم يريدون أن يستعيدوا مجد دولتهم الساسانية القديمة ويمحقوا العرب محقّقاً، مما أعدّ

لظهور تيار شعوبى بغيض رافقه تيار إلحاد وزندقة لا يقلُّ عنه عنُفماً ولا محاولة لهمد الإسلام والعروبة جميعاً . وفى أثناء ذلك كانت الثورات مضطربة فى شرق الدولة ، وكلما خمدت ثورة اندلعت أخرى ، وكان آخرها اندلاعاً ثورة بابك الخرمى فى آذربيجان التى ظلت نحو عشرين عاماً والتى كلفت الدولة كثيراً من الجيوش إلى أن سَحَقَهَا المعتصم وقواده سَحَقاً .

وقد أخذ المعتصم حينئذ يفكر فى عنصر جديد يعتمد عليه فى حروبه سوى الفرس ، فثوراتهم لا تنقطع ، وأهائهم فى إحياء مجدهم القومى لا تعمد ، واستظهارهم للشعبوية والزندقة لا تهدأ فورته ، وهدهاه تفكيره إلى الاعتماد على عنصر من الرقيق اشتهر لعصره بالصبر تحت ذلال الرماح ، مع حدقه بالرمي يمنة ويسرة ومقبلاً ومدبراً ، وهو الرقيق التركى الذى كثر توافده على بغداد والعراق ، فأخذ يستكثر من شرائه وطلبه من سمرقند وفرغانة وأشروسنة إلى أن بلغت عدته ثمانية عشر ألفاً^(١) ، وكل يوم يزيد ، حتى ضاقت به بغداد وشوارعها . وكان جمهور هذا الرقيق بدأ جفاة فكانوا يركبون الخيل ويركضونها فى الشوارع فتطأ بعض الشيوخ والأطفال والنساء ، مما اضطر المعتصم أن يبنى لهم مدينة سامراء^(٢) شمالي بغداد ، وانتقل معهم إليها ، وظلت حاضرة للخلفاء حتى أواخر عهد المعتصم سنة ٢٧٦ للهجرة .

وكان ذلك تحولا خطيراً فى تاريخ الدولة العباسية ، فقد كانت تعتمد كل الاعتماد على الفرس وكانوا أصحاب مدنية وحضارة فيثوها فى الحياة العربية ، وأعدوا لهضة حضارية واسعة تستقى منهم ومن موارد الإسلام والعروبة ومن الثقافات الأجنبية المختلفة ، وخاصة الثقافتين اليونانية والفارسية . أما الترك فلم يكونوا أصحاب ثقافة ولا مدنية ولا حضارة ، إذ كانوا بدأ لا يعرفون الصناعة ولا الزراعة ولا التجارة ولا الفنون ولا الآداب ولا قواعد الملك والسياسة ، إنما هم سكان صحار وقفار وحرب وجلاد وبأس ومراس ، وقد صورهم الجاحظ تصويراً دقيقاً فى رسالته التى

(١) النجوم الزاهرة ٢/ ٢٢٣ .

(٢) انظر فى تخطيط سامراء والسبب فى بنائها كتاب البلدان لليعقوبى ومجمع البلدان لياقوت

وسامراء فى دائرة المعارف الإسلامية وبلدان الخلافة

الشرقية تأليف لسترانج وترجمة بشير فرزييس وكوركيس عواد .

تحدث فيها عن مناقبهم قائلا: «الترك أصحاب عمَد (خيام) وسكان فياف وأرياب مواشٍ، وهم أعراب العجم... فحين لم تشغلهم الصناعات والتجارات والطب والفلاحة والهندسة، ولا غرسٌ ولا بُنْيَانٌ ولا شتقٌ أنهار ولا جباية غلّاتٍ، ولم يكن همهم غير الغزو والغارة والصَيْدِ وركوب الخَيْلِ ومقارعة الأبطال وطلب الغنائم وتدويخ البلدان، وكانت همهم إلى ذلك مصروفة، وكانت لهذه المعاني والأسباب مسخّرة ومقصورة عليها وموصولة بها، أحكموا ذلك الأمر بأسره وأتوا على آخره، وصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم وادّتهم وفخرهم وحديثهم ومهرهم، فلما كانوا كذلك صاروا في الحرب كاليونانيين في الحكمة وأهل الصين في الصناعات... وكآل ساسان في الملك والرياسة».

وهؤلاء البدو الموغلون في البداوة الذين لم يُعرفوا بحضارة ولا ثقافة ولا عُرُوفٍ بزراعة ولا صناعة ولا تجارة ولا بسلطان ولا بسياسة سرعان ما قبضوا على زمام الحكم، والمعتمَصم هو الذي هيأ لهم ذلك لا يجعلهم جُنْدَ الخِلافة العباسية فحسب، بل أيضاً باتخاذهم لمدينة خاصة وجعلها عاصمة الدوالة، فأتاح لهم الفرصة كي يُخسَلتِي بينهم في المستقبل وبين الخلفاء، فيصبحوا مسخّرين بأيديهم يصرّفونهم كما يشاءون. وإيس ذلك كل ما صنع فقد ولّى كبيرهم «إشناس» مصر وجعل له الحق في أن يولّي عليها ولاية من قبيلته، فكان يُدعى له فيها على المنابر^(١). وبذلك فتح المعتمَصم الباب لقواد الترك كي يمسكوا بزمام الشؤون الإدارية بجانب ما أمسكوا به من زمام الشؤون العسكرية. وخلفه ابنه الواثق فزاد الطين بِلْمَةً إذ ولّى إشناس من يابه في بغداد إلى آخر أعمال المغرب، جاعلا له أمر كل هذه البلدان يولّي عليها من شاء بدون مراجعته، واستخلفه على السلطنة وأبسه وشاحين بجوهر^(٢). وإيس ذلك فحسب ما أسبغه على الترك، فقد ولّى على الجانب الشرقي للدولة من كُورِ دجلة حتى خراسان والسند «إيتاخ»^(٣) حتى إذا تولّى إشناس سنة ٢٣٠ منحه مَرْتَبَتَهُ وأكّره أعماله^(٤). ولم يقف تجنّس الواثق على الخلفاء من بعده عند هذا الحد، فقد ارتكب خطأ خطيراً في حقهم بانصرافه عن اتخاذ ولي عهد بعده للخلافة، وسرعان

(١) النجوم الزاهرة ٢/٢٢٩.

(٢) اليعقوبي ٣/٢٠٥.

(٣) اليعقوبي (طبعة النجف) ٣/٢٠٥.

(٤) اليعقوبي ٣/٢٠٦.

والنجوم الزاهرة ٢/٢٥٢.

ما استغلّ قوادُ الترك : إيتاخُ وصاحباؤه وصيفٌ وبُغا الكبير هذه الفرصة حين توفى سنة ٢٣٢ للهجرة ، إذ حملوا رجال الدواة على البيعة للمتوكل ، وكان ذلك نذير شؤم إذ أصبحت تولية الخلفاء فيما بعد بيد الترك ، وعمّا قليل سيصبح عزلهم - كما سنرى - بأيديهم ، وبذلك يتحول إليهم السلطان جميعه ، ونصبح منذ خلافة المتوكل بإزاء عصر جديد هو العصر العباسي الثاني .

ويبدو أن المتوكل تنبّه - منذ استيلائه على الحكم - إلى خطورة ازدياد النفوذ التركي ، مما دفعه إلى التخلص سريعاً من إيتاخ ، وكان قد صار إليه أمر الجيش والأتراك والمغاربة والموالى وديوان الخبز أو البريد والحجابه والقيام على دار الخلافة ، وكأنه نائب للخليفة ، بل لكانما أصبح الخليفةُ ولا سلطان له ، مما جعل المتوكل يوحى إلى بعض أوليائه أن يشيروا على إيتاخ بالاستئذان للحج ، وما إن خرج من سامراء وأبعد في الطريق إلى مكة حتى عزله المتوكل عن الحجابه وولاها وصيفاً التركي (١) . وهي سياسة ستتبعها الخلفاء بعد المتوكل أن يضربوا قواد الأتراك بعضهم ببعض . وعاد إيتاخ من الحج ودخل بغداد فقبض عليه حاكمها بأمر من المتوكل وأودعه غياهب السجون مقيداً بالحديد إلى أن توفى لسنة ٢٣٥ . ولكن المتوكل لم يسدّد للترك ضربة قاضية ، بل أخذ يراوغهم ، مما جعله يضيف بُغا الكبير إلى وصيف في الحجابه . وتوالى السنوات وهو ضيقٌ بقيادة الترك ويفكر في التخلص منهم جميعاً ويهديه تفكيره في سنة ٢٤٣ أن يترك سامراء ويتخذ دمشق حاضرة له ، حتى يصبح بمنأى عن الترك وشروهم ، ويتشخص إليها في ذى القعدة ، ويبدو أن فكرته ذاعت في الناس مما جعل يزيد بن محمد المهلبى ينشد من قصيدة طويالة (٢) :

أظنّ الشام تشمت بالعراق إذا عزم الإمام على انطلاقي
فإن تدع العراق وساكنيها فقد تبلى المليحة بالطلاق

ودخل المتوكل دمشق في صفر لسنة ٢٤٤ عازماً على المقام بها ونقل دواوين الخلافة إليها ، وأمر أن يُسنى له بها بعض القصور . غير أن الترك فطنوا لمأربه ، وأنه يريد الإطاحة بهم فطالبوا برواتبهم ، وهو سيف سيظلون بشهروته على الخلفاء

(٢) الطبرى ٢٠٩/٩ .

(١) تاريخ الطبرى (طبع دار المعارف)

١٦٧/٩ وما بعدها .

كلما أرادوا منهم أمراً أو أرادوا لهم عزلاً ، واضطر المتوكل أن ينزل على إرادتهم وأن يبرح دمشق بعد نحو شهرين^(١). وعاودته الفكرة ، ولكن لا بعيداً ، بل قريباً ، شمالى سامراء ، إذ فكر في انتقاله إلى الماحوزة على بعد ثلاثة فراسخ منها وأقطع القواد وحواشيه فيها ، سماها « الجعفرية » ، وبني لنفسه فيها قصره « الجعفرى » وقصراً سماه « لؤاؤة » وقصوراً أخرى . وفى أثناء ذلك أخذ يجفو الترك ويجبل الآراء فى استئصالهم والاستبدال بهم ، وكان أول ما صنعه من ذلك أن ضمَّ إلى وزيره عبيد الله بن يحيى بن خاقان اثنى عشر ألفاً من العرب^(٢) ، وكأنه يريد أن يعيد العرب إلى الجيش وقيادته . وترامت شائعات بأنه يريد أن يفتك بجاجبيه وصيف وبُغا الكبير وغيرهما من قواد الترك ، فصمَّوا على مبادرته ، وكانت الأور قد ساءت بينه وبين ابنه المنتصر ولى عهده ، فوضع يده فى أيديهم ، وعزموا على قتله والتخلص منه ، وأعدوا لذلك نفرأ من أصاغر الترك . منهم بُغا الشراىى وباغر وموسى بن بُغا الكبير فدخلوا عليه هو ووزيره الفتح بن خاقان فى ليلة من ليالى شوال سنة ٢٤٧ للهجرة ، وقتلوهما غير مراعين فيهما عهداً ولا ذمَّة^(٣) . ومن حينئذ أصبح للترك كل شىء فى الدواة ولم يعد للخلفاء شىء ، وفى ذلك يقول ابن الطقطقى : « استولى الأتراك منذ قتل المتوكل على المملكة ، واستضعفوا الخلفاء ، فكان الخليفة فى يدهم كالأسير ، إن شاعوا أبقوه ، وإن شاعوا خلعوه ، وإن شاعوا قتلوه »^(٤) .

واعتلى المنتصر عرش الخلافة بأيدى قتلة أبيه من الترك ، بايعوه ثم أخذوا له البيعة من الناس ، ولم يلبثوا أن حصَّوه على خلع أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد بعده ، وكان المتوكل أبرمها لهما مع المنتصر ، فخشى الترك أن يخلفه أحدهما فيبطش بهم ثاراً لأبيه ، وتسمَّ خلعهما . وتوفى المنتصر بعد ستة أشهر من خلافته لسنة ٢٤٨ فاجتمع بُغا الكبير وبُغا الصغير وأوتامش ابن أخت بُغا الكبير ، وكانوا قد أخذوا المواثيق على من سواهم من قواد الترك والمغاربة والأشروسنية على

(٣) طبرى ٩/٢٢٥ .

(٤) الفخرى فى الآداب السلطانية (طبع

المطبعة الرحمانية بمصر) ص ١٨١ .

(١) مروج الذهب للمسعودى (طبعة دار

الأندلس) ٣٢/٤ والطبرى ٩/٢١٠ .

(٢) التنبية والإشراف للمسعودى (طبعة أوربا)

أن يرتضوا من يرضونه للخلافة، واختاروا أحمد بن محمد بن المعتصم وأقبوه بالمستعين، وبايعوه وبايعه الناس. وتوفى بؤغا الكبير وأصبح أوتامش المتصرف الأول في شؤون الدولة، وأخذ يحتزن أموالها هو وشاهك وأم المستعين، فكل ما يرد من الآفاق يصير إلى الثلاثة، ووصيف وبؤغا الشرابي الصغير بمعزل من ذلك مما أثار حفيظتهما على أوتامش وجعلهما يغريان به القواد الآخرين حتى ثاروا عليه وسفكوا دمه وانتهبوا داره^(١). واستدارا إلى باغر قاتل المتوكل، وكان شره قد تعاضم في قصر الخلافة فقتلوه بدوره. وسُمّ المستعين حركات الترك ودسائسهم، فرأى النزول إلى بغداد والاستقرار بها، وجزعوا لصنيعه، فأرسلوا إليه وفدأ يسترضيه سنة ٢٥١، ولكنه رفض العودة إلى سامراء، فخلعوه، وبايعوا المعتز بالله ولي العهد القديم للمتوكل بعد المنتصر، فكان هناك خليفة مولى بسامراء وخليفة معزول ببغداد، هو المستعين، ونشبت الحرب بينهم وبينه، وحاصروا بغداد، وما زالوا به حتى خلع نفسه من الخلافة وانحدروا به إلى «واسط» وهناك تم تدبير قتله^(٢). وبذلك أصبحت الخلافة خالصة للمعتز سنة ٢٥٢ وسمع بأن نقرأ من الترك يراودون أخاه المؤيد على تولي الخلافة وعزله، فسجنه ثم فتمك به. وأخذ يحاول الفتك بقواد الترك مستثيراً ضدهم المغاربة والفراغنة، وتمك بوصيف وبؤغا الشرابي الصغير قاتل أبيه، يقول المسعودي: «ولما رأى الأتراك إقدام المعتز على قتل رؤسائهم وإعماله الحيلة في إفنائهم وأنه قد اصطنع المغاربة والفراغنة صاروا إليه بأجمعهم لأربع بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين وجعلوا يقرعونه بذنوبه ويوبخونه على أفعاله وطالبوه بالأموال (روايتهم) وكان المدبر لذلك صالح بن وصيف مع قواد الأتراك^(٣). وأرسلوا تنوّاً إلى بغداد في طلب محمد بن الواثق، وأمروا المعتز بأن يخلع نفسه من الخلافة وصدع بأمرهم، وبايعوا محمداً ولقبوه بالمهتدي، وسجنوا المعتز ثم قتلوه سريعاً. وحاول المهتدي أن يسير سيرة عمر بن عبد العزيز في العدل ورفع المظالم والاقتصاد في النفقات، ويقال إنه أمر بإخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن فكسرت وضربت دنانير ودراهم، وقرب العلماء ورفع منازل الفقهاء وحرّم الشراب ونهى عن القيان فثقلت وطأته على الخاصة والعامة. وكان قد مضى مثل ابن عمه المعتز يفتك برؤساء الأتراك وقادتهم

(١) مروج الذهب ٩٣/٤ .

(١) طبري ٢٦٣/٩ .

(٢) طبري ٣٤٨/٩ ومروج الذهب ٧٧/٤ .

وفي مقدمتهم صالح بن وصيف وبايكباك أحد زعمائهم ، فقتلوه في رجب (١) سنة ٢٥٦ .

ويتولى الخلافة المعتمد أحمد بن المتوكل ، ببايعة الترك ثم تبايعة العامة ، وكانت ثورة الزنج قد نشبت في عصر المهندي ، وعبثاً استطاع قواد الترك أن يُجهزوا عليها ، إذ استفحل شرها وتفاقم ، فضعف شأنهم من جهة ، وشغلوا من جهة ثانية عن لعبهم المعتاد بالخلفاء ، وخذلهم وسفك دمائهم . ويتاح للمعتمد ودوانته قائد عظيم من أهل بيته هو أخوه أبو أحمد طلحة الملقب بالموفق فيقود بنفسه المعارك مع الزنج ومع مَنْ ثاروا بإيران ويُكْتَمَبُ له الظفر والقضاء على الزنج قضاءً بمرماً ، وبذلك يردُّ إلى الخلافة العباسية هيبتها ، ويحتنى الترك رءوسهم لما ولا نعود نسمع بفتنة حُجَّاب الخليفة عليه وتديبرهم لخلعه ، وكانوا حينئذ يارجوخ وكيفلغ وكتمر بن طاشتمر ، وقد ظلوا جميعاً يصدعون لأوامره وأوامر أخيه الموفق حتى توفيا جميعاً ، وببيع من بعده لسنة ٢٧٩ ابنُ أخيه الموفق أبو العباس أحمد ولُتَبَّ بالمعتضد ، وكان قد أبلى مع أبيه في حرب الزنج وغيرها من الحروب بلاءً حسناً فهابه الترك وقوادهم ، ونزاه في سنة ٢٨٢ يقبض على كبيرهم بكتمر بن طاشتمر ويسجنه ويصادر أمواله وضياعه ولا يحركون ساكناً رهبة منه وهيبة له (٢) ، وظلوا من بعده خانعين لابنه المكتنى الذى ولى الخلافة سنة ٢٨٩ غير أنه اقرف خطأً فاحشاً إذ ارتضى أخاه المقتدر وهو صبي ولياً للعهد من بعده ، وكان حربياً به أن يجعل ولاية العهد في شخص حصيف من أهل بيته يستطيع أن يقف الترك وقادتهم عند حد من السلطان لا يتجاوزونه . وتوفي سنة ٢٩٥ فخلفه المقتدر وهو في الثالثة عشرة من عمره ، وعظم كلام الناس فيه ، وقالوا كيف يلي الخلافة من لم يبلغ الحلم ، وأجمع أمرهم على أن يتولاها عبد الله بن المعتز ، وأخذ له البيعة على الناس محمد بن داود ابن الجراح الفقيه والأديب المشهور ، وبايعة القضاة والعدول ، وتلقب بالمتتصف وقيل بالراضى وقيل بالقائم بالحق وتقلد ابن الجراح الوزارة ولكن الأمر لم يدم له أكثر من يوم وليلة ، إذ ثار الترك عليه يتقدمهم كبيرهم مؤنس ، وأخذ عنوةً وقتل ، وتفسخ عليه كثير من الشعراء . أما ابن الجراح فاستمر مدة ثم انكشف أمره ،

(١) طبرى ٤٥٦/٩ وروج الذهب ٩٦/٤ . (٢) طبرى ٤٠/١٠ .

وقُتِل بدوره ، وعادت الخلافة إلى المقتدر^(١) ، وعاد الترك إلى نفوذهم القديم قبل المعتمد وأخيه الموفق . وزاد الأمور سوءاً أن أم المقتدر «شعب» وهي أم ولد رومية شركت مؤنساً في تصريف شئون الحكم والسياسة ، فكانت الوزارة لا تُسند إلى شخص في عام حتى ينحى عنها في عام قابل ، ودارت الأيام ، فإذا مؤنس يسخط على المقتدر وتعود مع السخط قصة رواتب الجند ، ويتفاقم الأمر بينهما في سنة ٣١٧ ويعزل الخليفة ويولّي أخوه محمد ويلقب بلقب القاهر بالله ، ويرتقى الفتق بين مؤنس والمقتدر فيعيد به إلى الخلافة ويجدد له البيعة^(٢) . وما تلبث السماء أن تكفهر ، فيعود الصدام بين مؤنس والمقتدر ، ويقتل الخليفة سنة ٣٢٠ ويولّي مؤنس الخلافة بعده القاهر بالله ، وكان شجاعاً غير أنه كان أحق أهوج شديد الإقدام على سفك الدماء ، وكان لا يكاد يصحو من سكر ، ومع ذلك حرم على الناس الخمر والسماع ، واستطاع القضاء على مؤنس ونفر من القواد^(٣) ففسد ما بينه وبين الترك وسرعان ما خلعه سنة ٣٢٢ وسمّلوا عينيه^(٤) ، وبايعوا بعده الراضى بالله أبا العباس أحمد بن المقتدر ، وظل يلى الخلافة حتى توفي سنة ٣٢٩ . وفي عهده تغلب أصحاب السيوف ولم يعد للخليفة سوى الاسم . وكان شاعراً بليغاً سمحاً واسع العطاء مات وهو في الثانية والثلاثين من عمره ، وخلفه أخوه المتقى بالله ، وكان تقيماً صالحاً ، إلا أنه لم يكن على بصر بالحكم والسياسة ، فحدثت في زمنه فن وحروب كثيرة بين الجند ونهبت دار الخلافة ، وقبض عليه لسنة ٣٣٣ وخلع وسمّلت عيناه^(٥) . وتولاها بعده المستكنى بالله ابن المكتفى ، ولم يكد يدور به عام في خلافته حتى نزل معز الدولة البويهى ببغداد ، فلقبه المستكنى بأير الأمراء وأعطاه الطوق والسوار وآلة السلطنة وعقد له لواء . غير أن معز الدولة لم يلبث أن أمر بالقبض عليه ، فخلع من الخلافة ونهبت داره وسمّلت عيناه^(٦) ، وبذلك ينتهى العصر العباسى الثانى بدخول البويهيين الفرس ببغداد وزوال تسلط الترك وقوادهم على مقاليد الحكم دون مآب .

والهمدانى ص ٨٠ .

(٥) الفخرى ص ٢١٠ ومروج الذهب ٢٤٧/٤

والهمدانى ص ١٤٣ .

(٦) مروج الذهب ٢٧٦/٤ والفخرى ص ٢١٢

والهمدانى ص ١٤٩ .

(١) طبرى ١٤٠/١٠ - ١٤١ .

(٢) تكملة تاريخ الطبرى للهمدانى (طبع المطبعة .

الكاثوليكية ببيروت) ص ٥٨ .

(٣) مروج الذهب ٢٢١/٤ والهمدانى ص ٧٨ .

(٤) مروج الذهب ٢٢١/٤ والفخرى ص ٢٠٥ .

تدهور الخلافة

رأينا الترك يسيطرون على أداة الحكم بعد مقتل المتوكل في السنوات الثمان التي تلتها ، ثم منذ عصر المقتدر ، إذ كانوا هم الحكام الحقيقيين للدولة ، ولم يكن للخلفاء حينئذ أى سلطان ، ومن أين يأتيهم السلطان والترك يولّونهم ويعزلونهم بل يسفكون دماءهم وكل ما يأتون من الأمر أو يدعون فإنما هو بتدبيرهم ؟ وصور ذلك بعض الشعراء لعهد الخليفة المستعين (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ) ، فقال (١) :

خليفةٌ في قفصٍ بين وصيفٍ وبُغا
يقول ما قالوا له كما يقول الببغا

فالخليفة حينئذ كان أشبه ما يكون بببغا في قفص يردّ ما يقوله مخاطبه ولا أمر يملكه ، فالأمر كله لحاجبيه : وصيف وبغا ، حتى إذا دارت فكرة خلعه بذنبيهما خلعه ، وولياً بعده المعتز بالله (٢٥٢ - ٢٥٥ هـ) وسُرّوى أنه لما جلس على سرير الخلافة أحضر أصحابه المنجمين وسأوهم كم يظل خليفة للمسلمين ؟ وكم يعيش ؟ وكان بالمجلس بعض الظرفاء فقال : أنا أعرف من هؤلاء المنجمين بمقدار خلافته وعمره ، فقالوا له : فكم تقول إنه يعيش ؟ وكم يملك ؟ فقال : طالما أراد الترك ذلك ، فلم يبق في المجلس أحد إلا غلبه الضحك (٢) . ولم يمكث المعتز في دست الخلافة سوى ثلاث سنوات إذ سرعان ما خلعه الترك وسفكوا دمه ، وولوا بعده المهتدى (٢٥٥ - ٢٥٦ هـ) وكان حسن السيرة ورعاً تقيّاً اطرح الملاهي وحرّم الشراب والغناء ، وكأنما آذت الترك سيرته الطاهرة فخلعوه ، وولوا المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) ، وكان منهمكاً في اللعب واللذات غير أن أخاه طلحة الذي لُقب بالموفق نهض بالأمر من دونه فنبتت الخلافة إلى أبعاد حد ، وأعاد إليها مجزمه وعزمه وجيده هيبته ومكانتها المهذرة ، وقد ترك

(٢) الفخرى ص ١٨١ .

(١) مروج الذهب ٦١/٤ .

أخاه عاكفًا على ملذاته ، واحتمل أعباء الخلافة في البطوأة والحرب والنفوذ من المشكلات الصعاب ، بحيث أصبح هو الخليفة الحقيقي ، أما أخوه المعتمد فلم يكن له من الخلافة سوى الاسم وصور ذلك بنفسه قائلاً ^(١) :

أليس من العجائب أن مثلي يرى ما قلّ ممتنعاً عليه
وتؤخذُ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذلك شيء في يديه

وتصادف أن توفي الموفق قبل المعتمد بقليل وكان ولياً للعهد ، فجعل المعتمد ولاية العهد لابنه المعتضد وكان مثل أبيه بطلا مغواراً ، فولى الخلافة بعد عمه المعتمد (٢٧٩ - ٢٨٩) ، فأكل لها ما أحاطها به أبوه من العزة والمهابة ، فلم يرتفع للترك في عهده صوت ، وكان اسمه - كما مرّ بنا - أبا العباس أحمد فتلقب بالمعتضد بالله ، وفيه يقول ابن تغرى بردى : « كان المعتضد شجاعاً مهيباً أسمر نحيفاً معتدل الخلق ظاهر الجبروت وافر العقل شديد الوطأة من أفراد رجالات بني العباس وشجعانهم ، كان يتقدم إلى الأسد وحده » ، ويقول : « هو آخر خليفة عقد ناموس الخلافة ثم أخذ أمر الخلفاء بعده في إدبار » ^(٢) . وخلفه ابنه المكتنى (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ) وكان قصير النظر فاتخذ ولي عهده أخاه المقتدر وهو لا يزال صبيّاً ، فولى بعده الخلافة (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) ، وسنه ثلاث عشرة ، فكان كل ما أحكمه جده الموفق وأبوه المعتضد قوّضه في لحظات ، فبمجرد أن تسلّم مقاليد الحكم وهو غلام عاد للترك سلطانهم وطغيانهم وعاد معهما الخلع وسفك الدماء ، وزادوا ستملّ الأعين .

وإذا كان المكتنى أخطأ في أواخر العصر بتولّى أخيه المقتدر للعهد وهو صبي فإن المتوكل اقترف بدوره خطأ عظيماً في أوائل العصر ، إذ عقد ولاية العهد لثلاثة من أبنائه ^(٣) ، وكان حريّاً به أن يتعظ بجده الرشيد وتوليته العهد للأمين والمأمون والقاسم ، مما جرّ بلاء كبيراً ذهب ضحيته الأمين وأحرقت بغداد على نحو ما مرّ بنا في كتاب العصر العباسي الأول ، فكان حريّاً بالمتوكل ألا يعرض أبناءه

(١) الديارات للشابشي (الطبعة الثانية - مطبعة .

(٢) طبرى ١٧٥/٩ وروج الذهب ٥/٤

والنجوم الزاهرة ٢/٢٨٠

المعارف بينداد ص ١٠١ .

(٣) النجوم الزاهرة ٣/١٢٧ - ١٢٨ .

للتنافس على الخلافة ، وكان المنتصر أولهم في الولاية ، ويليه المعتز والمؤيد ، فأوغر المتوكل صدره حتى أصبح خصماً له . وإذا كانت حادثة الرشيد جرت مقتل ابنه الأمين فإن صنيع المتوكل أدى إلى مقتله وسفك دمه . وكان المتوكل هو الذي هيا للترك أن يغلبوا على الخلافة وأن يصبحوا هم أصحاب السلطان الحقيقي يؤثرون ويعزلون ويستجنون ويقتلون ، وتمادوا في ذلك حتى ردّ الموقف إلى الخلافة مهابتها ، وتبعه في صنيعه ابنه المعتضد ، ولكن لم يلبث المكتفى أن هوى بها من حائق ، فعاد إلى الترك كل سلطانهم وكل بغيهم وعدوانهم على الخلافة والخلفاء .

وكان من أهم الأسباب في تدهور الخلافة العباسية أن كثرة الخلفاء انغمست في اللهو والترف والإقبال على كل متاع مادي من بناء قصور باذخة ومعيشة كُفّلت لها كل وسائل النعيم وأدواته ، وأولهم المتوكل ، وفراه لا يبني لنفسه بسامراء قصراً واحداً ، بل قصوراً ينفق عليها أموالاً طائلة ، منها الشاه والعروس والشبذاز والبديع والغريب والبرج ، ويقال إنه أنفق على القصر الأخير مليوناً وسبعمائة ألف دينار . وبنى في سنة ٢٤٦ بالمحوزة على بعد ثلاثة فراسخ من سامراء شمالاً قصوراً عدة ، منها الجعفرى والمهارونى واللواؤة ، كلفته ملايين الدنانير (١) . ويروى أنه سأل شخصاً حين أتمّ بناء الجعفرى كيف قولك في دارنا هذه ؟ فأجابه بقوله : إن الناس بنوا الدور في الدنيا وأنت بنيت الدنيا في دارك (٢) ، وهو سقمةٌ وخرقٌ ، فالخليفة لا يفكر إلا في نفسه وملذاته ، وكان ليس هناك جيوش تُعَدُّ للحرب بأسلحتها وعددها الكثيرة ، وكان ليس هناك رعية يقوم الخليفة على مصالحها ، فيبنى لها المستشفيات ويوفر لها الغذاء والكساء ، بل الرعية تكدح وتشقى وتذوق مرارة الشقاء والكدح لينعم الخليفة ويلهو ويبنى القصور ويملاها بالجواري من كل لون . وتبع الخلفاء المتوكل يقتلون بسيرته السيئة ، ما عدا المهتدى والمتقى وكانت مدة خلافتهما قصيرة ، وحتى المعتضد الفارس الحازم حزمياً لا يدانيه حزم يقول عنه المسعودى لم تكن له رغبة إلا في النساء والبناء ، ويذكر أنه أنفق على قصره المعروف بالثرىا أربعمائة ألف دينار ، وكان مجموعة من الدور والقصور تمتد ثلاثة فراسخ (٣) ، ثم تكون النكبة الكبرى بتولى المعتز الخلافة وهو صبي ، ويقال إنه كان في قصره أحد عشر

(٢) مروج الذهب ٤/١٤٧ .

(٣) مروج الذهب ٤/١٤٥ .

(١) معجم البلدان في سامراء والطبرى ٩/٢١٢ .

ومروج الذهب ٤/٤٠ والنجوم الزاهرة ٢/٣٢٠ .

ألف غلام خصي من الروم والصقالبة والسودان ، ويقال أيضاً إنه أتلف من الأموال ثمانين مليوناً من الدنانير^(١) غير ما بدّده من الجواهر الثمينة التي كانت تحتفظ بها خزائن الدولة منذ خلفائها الأوائل .

وطبيعي أن يقضى هذا السفه على هيبة الخلافة وأن يستلظها الترك وخاصة حين يطلبون للجيش رواتبه فيجدون الخزينة خالية الوفاض . وقد فسد حينئذ الحكم فساداً شديداً ، إذ كان الوزراء يرتشون ومثلهم الولاة على الأقاليم وكبار الكتاب ، بل إنهم جميعاً كانوا يختلسون أموال الخراج والضرائب وما كان يصير إلى الدولة من البلدان المختلفة ، وقد بدأ هذا الوباء بأخرة من العصر العباسي الأول في زمن الواثق إذ صادر في سنة ٢٢٩ للهجرة كتاب الدواوين واستخلص منهم نحو مئيرني دينار^(٢) ، وكلما تقدمنا في العصر العباسي الثاني اتسع الخرق ولم يعد من الممكن رتقهُ ، ولذلك مظهر واضح هو كثرة المصادرات لأموال الوزراء والكتّاب ، إذ نرى المتوكل يصادر أموال ابن الزيات وزير آبائه ، ويصادر أموال كاتبه عمر بن الفرج الرُحَجيّ . ويقال إنه أخذ من أمواله ما قيمته مائة وعشرون ألف دينار وأخذ من أخيه نحو مائة وخمسين ألفاً^(٣) ، ونكب كاتباً ثانياً استوزره مدة قليلة يسمى أبا الوزير واستخلص منه مائتي ألف دينار^(٤) ، ونكب كاتباً ثالثاً من كتاب التوقيع يسمى نجاح بن سلمة وأخذ منه ومن ابنه مائة وأربعين ألف دينار^(٥) ، ونكب القاضي أبا الوايد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد واستخلص منه مائة وستين ألف دينار^(٦) ، ونكب يحيى بن أكرم قاضي قضاته واستخلص منه خمسة وسبعين ألف دينار^(٧) . وأثرى قواد الترك في السنوات التي تلتها ثراء فاحشاً وأثرى كثير من الوزراء ، ونرى المعتمد يصادر أموال وزيره إسماعيل بن بلبل ويسفك دمه كما يصادر أموال وزيره سليمان بن وهب وابنه عبيد الله ويستخلص منهما تسعمائة ألف دينار^(٨) .

ومعنى ذلك أن الوزراء ومثلهم الكتّاب والولاة كانوا يختلسون أموال الدولة والأمة ، ويخيّل إلى الإنسان أنه لم يعد هناك موظف كبير في الدولة لا يقترف

- | | |
|-----------------------------------|---------------------------|
| (١) النجوم الزاهرة ٢٣٤/٣ . | (٥) طبرى ٢١٥/٩ . |
| (٢) طبرى ١٢٥/٩ . | (٦) مروج الذهب ١٤/٤ . |
| (٣) طبرى ١٥٨/٩ ومروج الذهب ١٩/٤ . | (٧) طبرى ١٩٧/٩ . |
| (٤) الفخرى ص ١٧٧ . | (٨) النجوم الزاهرة ٤٠/٣ . |

هذه الجريمة النكراء . وكان الولاة يرشون الوزراء ليظلوا في ولاياتهم ، وبلغت الرشوة أحياناً مائتي ألف دينار غير ما يرافقها من التحف والهدايا^(١) ، وحتى رجال الحسبة كانوا يرتشون ويختلسون الأموال ، في أثناء مراقبتهم للتجار وحركة البيع والشراء في الأسواق على نحو ما يروى عن أحمد بن الطيب بن مروان السرخسي الفيلسوف ، إذ خان الأمانة في ولايته الحسبة ببغداد ، وكان جملة ما أخذه مائة وخمسين ألف دينار^(٢) . ولا نبالغ إذا قلنا إنه كان يتورط في هذا الاختلاس وما يطوى فيه من الرشوة أكثر موظفي الدولة ، وخاصة من كانوا منهم يقومون على جباية الضرائب وأموال الخراج ، وكثيراً ما كانوا يعدّون أصحاب الضياع والأعيان وذوى الوجاهة بالضرب والسحب على الوجوه والرسف في القيود وصب الزيت على رؤوسهم أو النفط وتعليقهم في الجند من أيديهم وأرجلهم ، حتى يستخرجوا منهم كل ما يريدون من أموال ، ويصور ذلك ابن المعتز في أرجوزته^(٣) التي أرخ فيها خلافة المعتضد وأعماله الجلييلة مبيّناً كيف كانت تجبي أموال الخراج قبله في قسوة بل في عنف بل في أهوال من التعذيب والتنكيل ، يقول :

فكمّ وكم من رجلٍ نبيلٍ ذى هَيِّبَةٍ ومَرَكَبٍ جليلٍ
رأيتُهُ يُعْتَلُّ بالأعوانِ إلى الحَبُوسِ وإلى الديوانِ
وجعلوا في يده جبالاً من قِنَبٍ يقطعُ الأوصالاً
وعلّقوه في عُرَى الجدارِ كأنه بَرَادَةٌ في الدارِ
وصفّقوا قفاه صفّقَ الطُّبْلِ نَصْباً بعينِ شامتٍ وخِلِّ
وصبَّ سَجَانُ عليه الزَّيْتِنا فصار بعد بَزَّةٍ كُمَيْتِنا

ويمضى ابن المعتز فيذكر أنهم ما يزالون يعدّون المرء بصنوف العذاب حتى لا تبقى فيه قدرة على المقاومة ، فيتوسل إليهم أن يعرضوه على التجار كي يقرضوه بعض أموالهم ، أو حتى يبيعهم بعض عقاره ، وأن يؤجلوه لذلك خمسة أيام ، وبعد لأي يجعلونها أربعة ، ويأتيه أصحاب الربا الفجرة ، فيقرضونه واحداً

(٣) انظر الديوان (طبعة دار صادر بيروت)

(١) الفخرى ص ١٧٨ .

(٢) مروج الذهب ٤/ ١٧٠ .

بعشرة ، ويكتبون عليه صكاً بأنه باع ضيعته ، وينزل على إرادتهم ، حتى يخلص من هذا التعذيب الذى لا يطاق بدفع ما يريده أرباب الخراج . ويقول ابن المعتز إن المعتضد أزال هذا التعذيب وقمع هذا الظلم الصارخ ، ولكنه كان قمعاً إلى أجل محدود ، إن كان حقاً قمعاً أو استطاع قمعه . ويصور لنا ابن المعتز كيف كان هؤلاء الحياة يبتزون أموال التجار أصحاب الجواهر والأموال العريضة ، وخاصة من كانت له معاملات منهم مع الدولة ، فقد كانوا يدعون عليه أن للسلطان عنده ودائع يجب أن يردها ، وكانوا لا يزالون يتفننون في تعذيبه :

حتى إذا ملَّ الحياةَ وضَجِرَ وقال ليت المال جمعاً في سَقَرِ
أعطاهم ما طلبوا فأُطْلِقَا يستعمل المشى ويمشى العنقا

والعَتَقُ مشية سريعة ، وكأنه يخشى أن يردوه إلى التعذيب ، فهو يطير طيراناً . وويل لمن كان يرث عن أبيه ميراثاً ضخماً ، فقد كانوا يحاؤون الاستيلاء على ميراثه بطرق شتى ، إذ يسجنونه ، ويطلبون إليه أن يثبت أنه ابن المتوفى ، وما يزالون يضربونه ويلكمونهم ويصفعونهم ، يقول ابن المعتز :

وأسرفوا في لَكْمِهِ ودفعِهِ وانطلقت أكفُّهُم في صَفْعِهِ
ولم يزل في أضيْقِ الحُبُوسِ حتى رى إليهِمُ بالكيسِ

وكانت لم نعد بإزاء دولة تحكم بقوانين الشريعة الإسلامية ، وإنما أصبحنا بإزاء لصوص ومختلسين وقطاع طرق . وما إن نجم عصر المقتدر على صدر الأمة حتى يفسد الحكم فساداً لا حد له ، وقد استوزر اثني عشر وزيراً منهم من وزر له المرتين والثلاث ، أولهم ابن الفرات ، ويروى أنه حاسب كتاب العطاء فوجد لهم خيانة بلغت نحو مائة ألف دينار^(١) ، ولم يلبث المقتدر أن صادره في سنة ٢٩٩ واستولى على أمواله وإقطاعاته ، فاجتمع له نحو سبعة ملايين من الدنانير^(٢) ، ومع الشك في أمانته على هذا النحو نراه يعود إلى الوزارة حتى إذا توفى في سنة ٣١٢ وجد له من الدنانير ما يزيد على عشرة ملايين^(٣) . وولى الوزارة بعد إقالته الأولى منها

(٣) النجوم الزاهرة ٢١٢/٣ .

(١) صلة تاريخ الطبرى لعريب ص ٢٥ .

(٢) عريب ص ٢٦ .

الحاقاني، وكان سيء السيرة، فأخذ يبيع الولايات غير مراعاة الأمة عهداً ولا ذمة، ويقال إنه ولّى على الكوفة في يوم واحد تسعة عشر والياً أخذاً من كل واحد منهم رشوة حسبما تيسر، وفيه يقول بعض معاصريه^(١):

وزيرٌ لا يملُّ من الرِّقَاعَةِ يولِّي ثم يعزل بعد ساعة
إذا أهلُّ الرُّشَا صاروا إليه فأحظى القوم أوفرهم بضاعة

ونعجب أن تُدرِّ إقتلعات الوزير في عهد المقتدر مائة وسبعين ألف دينار سنوياً^(٢)، ولا يكفيه هذا الراتب الضخم ويختاسم ويسرق أموال الدولة والأمة حتى يصبح من ذوى الملايين. وبذلك نفهم كيف كان بعض الوزراء حينئذ يبدل في سبيل حصوله على الوزارة خمسمائة^(٣) ألف دينار، مؤملاً أن يستردها في أسرع وقت. ويروى أن حامد بن العباس حين وزر للمقتدر أهدها بستاناً أنفق عليه مائة ألف دينار وفرشه باللبود الخراسانية^(٤). واستوزر المقتدر بعده ابن الفرات ثانية، فاستخلص منه مليوناً وثلاثمائة ألف، ويقال إنه كان ينفق على مواعده يومياً مائتي دينار^(٥)، في حين كان المستكفي ينفق بأخرة من العصر على ماثلته كل يوم خمسين ألف درهم^(٦). وكان الولاة يستنون سنة الوزراء في نهب الأموال واختلاسها^(٧).

وبهذه الصورة كانت أموال الدولة تُختلس وتُنهب، ينهبها ويختاسمها الولاة والكتّاب والوزراء، ينعمون ويفترون، والشعب يتمرغ في البؤس والحرمان والشقاء، وكأنما تعطلت أداة الحكم، بل لقد فسد فساداً لا يقف عند حد. وكان مما زاد في هذا الفساد غلبة النساء على الحكم، فكان كثيراً ما يصرّفه بحسب أهوائهن، ولكن يقتنين الجواهر الباهظة الأثمان والضباع والعقارات والأموال الطائلة، حتى يقال إن المستعين مات وفي خزائن الدولة نحو نصف مليون دينار، على حين كان في خزائن أمه مليون دينار كاملة^(٨)، وكانت أم المعتز أكثر منها جشعاً، ويقال إن

- | | |
|---------------------------------|-----------------------------------------------------|
| (١) الفخرى ص ١٩٨ وعريب ص ٢٩-٣٠. | (٦) الهمداني ص ١٤٨. |
| (٢) الهمداني ص ٥١. | (٧) النجوم الزاهرة ١٨٣/٣ وعريب ص ٣١ والهمداني ص ١٣. |
| (٣) الفخرى ص ٢٠٢. | (٨) طبري ٢٨٤/٩. |
| (٤) الهمداني ص ٢٢. | |
| (٥) الهمداني ص ٣٦. | |

قواد الترك طلبوا من ابنها قبل قتله خمسين ألف دينار ، فلم يجدها في خزائن الدولة ، ففزع إليها يطلب منها أن تقرضه هذا المبلغ ، حتى يفسد نفسه به من القتل ، فأنكرت أن يكون عندها مال ، وخلع ابنها وقتل بعد أيام ، وصادر أموالها حاجبه صالح بن وصيف ، وملاؤه العجب حين وجد في خزنة لها مليوناً من الدنانير ، غير جواهر قدّرت قيمتها بمليون دينار . ولا رأى وصيف ذلك قال : قبّحها الله ، عرضت ابنها للقتل في خمسين ألف دينار يدفعها رواتب للجيش ، وعندها هذا كله في خزنة واحدة من خزائنها^(١) . وثالثة الدواهي الطامة شغب أم المقتدر ، وهي أم ولد رومية ، كانت تمسك بيديها زمام الأمر والنهي في الدولة ، وكانت تستعين بقهرمانتها ثمل ، وأقعدتها في الرصافة كل يوم جمعة للنظر في المظالم ، فكانت تكتب بأحكامها على رقايع الناس بمحضرة الفقهاء والقضاة^(٢) . وأثرت شغب حتى كان دخلها في العام من غلات ضياعها مليون دينار^(٣) ، ويقال إنها غضبت على إحدى وصيفاتها ، فاستخلصت ثمل منها مليوناً من الدنانير^(٤) ، كأن مليون دينار في أيدي نساء القصر وجواريه شيء عادي تملكه أي وصيفة . وكان المقتدر متلافياً فأنفق أموال الدولة على النساء وأهداهن جواهرها وتحفها النفيسة ، من ذلك إهداؤه الدرّة اليتيمة - التي ظل آباؤه يحتفظون بها حبساً طويلاً - لبعوض حظاياها ، وكانت زنتها ثلاثة مثاقيل . وأهدى حظية ثانية سُبُحَةَ جواهر لم يسر مثلها ، قيمتها لثلاثة ألف دينار ، وأهدى حظية ثالثة فصّ ياقوت اشتراه الرشيد بثلاثة ألف دينار ، ويقال إنه أنفق على ختان أبنائه ستمائة ألف دينار^(٥) . وكان كل ذلك وقع في يد معتوه ، فهو ينثره يميناً وشمالاً . واستولى قواد الترك لعهدده على كثير من الإقطاعات والضياع ، ويقال إن إقطاعات يانس الموفق المتوفى سنة ٣١١ كانت تغلّ له سنوياً ثلاثين ألف دينار^(٦) . وكانت قهرمانه شريفة هي علم الشيرازية تستولى على كل أمور الدولة لعهد المستكني^(٧) .

وعلى هذا النحو لم يعد الخلفاء يحكمون منذ عهد المقتدر المشوم ، فقد أصبح

- | | |
|----------------------------------------|----------------------------------|
| (١) طبرى ٣٩٥/٩ والنجوم الزاهرة ١٩٣/٣ . | (٥) الهداني ص ٦٥ والفخرى ص ١٩٢ . |
| (٢) عريب ص ٥٠ والنجوم الزاهرة ١٩٣/٣ . | والنجوم الزاهرة ٢٣٤/٣ . |
| (٣) النجوم الزاهرة ٢٣٩/٣ . | (٦) عريب ص ٨٠ . |
| (٤) الهداني ص ٣١ . | (٧) الهداني ص ١٤٣ . |

الترك والنساء والجنود هم الذين يصرفون أمور الدولة ، وعمّ الفساد وانتشرت اللدائس والمؤامرات ، وفسدت أداة الحكم فساداً شديداً ، حتى لنجد أبا جعفر بن شيرزاد حاكم بغداد نيابة عن توزون لعهد الخليفة المتقي يؤمّن ليصاً فاتكاً هو حمدي ، ويشترط عليه أن يدفع له شهرياً خمسة عشر ألف دينار ، في حين يكبس هو بيوت الناس بالمشاعل والشموع وينهب منها ما يريد من الأموال والجواهر . ويستظهر ابن تغرى بردى أن هذا اللص هو الذي سُمّي عند العامة في سالف الأعصار أحمد الذنف ، وقصته في ألف ليلة وأيلة مشهورة (١) .

وهيّا ذلك منذ أوائل العصر لا إلى نهب الأموال والجواهر فحسب ، بل إلى نهب الأقاليم والولايات ، فإذا أسرة طاهر بن الحسين قائد المأمون تقيم انفسها في خراسان إمارة تظل بها حتى سنة ٢٥٩ غير أن صلتهم بالدواة ظلت حسنة وظلوا يرسلون لها الضرائب ، وكان منهم نفر يتولون شرطة بغداد حتى بعد انتهاء حكمهم لخراسان وما وراء النهر . وفي سنة ٢٤٧ للهجرة استطاع يعقوب بن الليث الصفار أن يقيم الإمارة الصفارية في إقليم بلوخستان شرقي إيران ، ومدّ حدودها حتى شملت كرمان إلى الجنوب من إيران كما شملت أفغانستان والسند ، واستولى على ما بيد محمد بن طاهر آخر الحكام الطاهريين في خراسان . وتوفى يعقوب لسنة ٢٦٥ فخلفه أخوه عمرو حتى سنة ٢٨٧ إذ قضى عليه السامانيون حكام ما وراء النهر . وحدث في سنة ٢٥٥ أن أهدي المعتز بايكباك حاجبه مصر فولّى عليها أحمد بن طواون فاستقلّ بها ومدّ حكمه إلى الشام ، وخلفه على الإقليمين ابنه خمارويه ، وزواجُ ابنته بوران من المعتضد مشهور . وظلت تلك الإمارة الطواونية في أبناء أحمد بن طواون وأحفاده حتى سنة ٢٩٢ إذ عادت في عهد المكتفي إلى حظيرة الدواة ، فولّى عليها عيسى النوشري ، وتبعه ولاة مختلفون إلى أن وليها محمد ابن طُغنج الإخشيد ولايته الثانية سنة ٣٢٣ فأسس بها الإمارة الإخشيدية التي ظلت تلي شئون مصر حتى تسلّمها منها المعز الفاطمي سنة ٣٥٨ . وإمارة السامانيين في خراسان وما وراء النهر أطول هذه الإمارات عمراً ، فقد بدأت حوالي سنة ٢٦١ وظلت إلى ما بعد هذا العصر حتى سنة ٣٨٩ وكانت العلاقة بينها وبين الخلافة

(١) النجوم الزاهرة ٣/٢٨١ .

العباسية حسنة ، فكان أمراؤها يتواونها بعهود من الخلفاء حتى تكون ولايتهم شرعية ، وأذن لهم الخلفاء في أن تُدكَرَ أسماءهم معهم في خطبة الجمعة وأن يضرّوا أسماءهم على الدنانير ، وكانوا سُنِّيِّين ، ودعم ذلك الصلة بينهم وبين الخلافة .

ولا نصل إلى أواخر العصر ، حتى يتغلب كثير من الحكام على ولاياتهم ، فتصبح فارس والرّي وأصبهان والجل في أيدي بني بويه ، وخراسان في يد نصر بن أحمد الساماني ، وطبرستان وجرّجان في يد الديلم ، وكيرمان في يد محمد بن إلياس ، والموصل وديار ربيعة وبكر ومضر في أيدي بني حمدان ، والأهواز وواسط والبصرة في يد البريدي ، واليامة والبحرين في يد أبي طاهر الجسنّابي القرمطي ، ومصر والشام في يد محمد بن طغج الإخشيد ، والمغرب وإفريقية في يد القائم بأمر الله ابن المهدي الفاطمي المتلقب بأهير المؤمنين ، والأندلس في يد عبد الرحمن الناصر الأموي . ولم يبق في يد الخليفة سوى بغداد ، واستولى عليها منه - كما أسلفنا - البويهيون وخلعوه ، وولّوا المطيع لله ، وأصبحوا هم الذين يولّون الوزراء والقضاة والولاة وأصحاب الشرطة والحسبة ، ولم يعد للخليفة سوى سلطان اسمي وأن يدُعي له على المنابر ، وخفضت نفقاته ، وقرّرت له نفقة طفيفة .

وليست هذه الكوارث كل ما حاق بالخلافة العباسية في العصر العباسي الثاني ، فقد نشبت ثورات كثيرة استنزفت موارد الدولة ، وخاصة ثورتى الزنج والقرامطة ، أما الزنج فقد استطاع الموفق لعهد أخيه المعتمد أن يقضى بعد جهاد عنيف عليهم وعلى ثورتهم قضاء مبرماً ، وأما القرامطة فقد ظلوا حتى نهاية العصر ينازولون الدولة ويتزاون بها خسائر فادحة في الرجال والأموال ، ولعل من الخبر أن نخص كلا من الثورتين بكلمة موجزة .

ثورة الزنج

شغلت هذه الثورة الدولة أربع عشرة سنة ونحو أربعة أشهر لم تتصعّ فيها الحرب أوزارها منذ رمضان سنة ٢٥٥ للهجرة حتى صفر سنة ٢٧٠ وكان الذي

أعد لها وأشعلها رجل فارسي من ورزّين: قرية من قرى الرّى بإيران ، زعم في أول الأمر أنه من بنى عبد القيس سكان البحرين ، وفيهم أخذ ينشر آراءه الثورية ضد الدولة لأوائل العقد السادس من القرن الثالث الهجري ، فتبعه نفر قليل . وأحسّ كأن البحرين لن تتبعه ، فتركها إلى البصرة لسنة ٢٥٤ وأخذ ينشر فيها آراءه ، وارتفع أمره إلى الوالي فطلبه ، غير أنه أسرع بالخروج منها إلى بغداد ، حتى إذا استدار العام عاد بفكرة جديدة هي أن يثير الزنج الذين كانوا يكسحون السباخ هناك ، وكان يسخرهم كبار الملاك الإقطاعيين في هذا الكسح وفي زرع أرضهم لقاء أجرزهد لايسدّ ما يحتاجون إليه من الغذاء البسيط والكساء الخشن . ومضى يثيرهم ويتجمعون إليه ، ورأى إحكاماً الدعوتة أن يُسبِّغ عليها صبغة دينية ، فزعم أنه يُوحى إليه وأن العناية الإلهية بعثته واختارته لإنقاذ الزنج من جور الملاك الظالمين ، وأشاع أن اسمه على بن محمد ووصل نسبه بإمام الزيدية : زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، حتى يثبت حقه الشرعي في الثورة ضد الخلافة العباسية^(١) ، وهو نسب مكنوب إذ هو فارسي كما قدمنا ، وحقاً نجد ابن المعتز ينعتة في الأرجوزة التي تمثلنا ببعض أبياتها فيما أسلفنا بأنه علوي إذ يقول عنه :

والعلويّ قائدُ الفُساقِ وبائعُ الأحرارِ في الأسواقِ

وؤمن بأن ابن المعتز تعمد ذلك حتى يلطّخ العلويين خصوم أسرته بعارٍ هذا الرجل الذي لم يكن يرعى في الأمة إلاّ ولا ذمة على نحو ما سيتضح عما قليل . وكان لا يزال يردّد بأن العباسيين انغمسوا في إثم الخمر والمجون والمعاصي ، وأنه تجب حربهم حتى يتخلص الناس من شرورهم ، وحتى يردّ الأمر إلى نصابه وإلى مستحقّيه العلويين من أمثاله المنتسبين إليهم زوراً وبهتاناً .

وكان الزنج يبلغون أوفى ، وكلهم يعملون في كسّح السباخ والزراعة ، وكانوا يُجلبسون من شرق إفريقيا ، وسرعان ما التفوا حول هذا الثائر والتف معهم كثير من عبيد الفرات بحيث غدت الثورة كأنها ثورة العبيد على السادة الجائرين ، وثبتت

ودراسات في المصور العباسية المتأخرة لعبد العزيز
الدوري (طبع بغداد) ص ٧٩ .

(١) طبري ٤١٠/٩ وروج الذهب ١٠٨/٤
والفخرى ص ١٨٦ والنجوم الزاهرة ٢١/٣

ذلك في نفوسهم أن صاحبهم كان يدعو إلى تحريرهم ، وهي دعوة كريمة ، غير أنه لم يمحض فيها إلى النهاية ، إذا استباح في حروبه استرقاق الأحرار ، مما يؤكد أنه لم يكن يفكر جيداً في إلغاء الرق . ويدل أكبر الدلالة على أنه لم يكن محرراً للعبيد حقاً ولا كان علويًا ما رواه المسعودي عنه من أنه « كان ينادي في عسكره على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس بن عبد المطلب وغيرهم من ولد هاشم وقريش ومن سائر العرب وأبناء الناس ، فتبايع الجارية بالدرهمين والثلاثة ، وينادي عليها بنسبها : هذه ابنة فلان ، ولكل زنجي منهن العشرة والعشرون والثلاثون . . . واستغاثت به امرأة هاشمية من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب كانت عند بعض الزنج ، وسألته أن ينقلها إلى غيره من الزنج أو يعتقها مما هي فيه ، فقال لها : هو مولك وأولى بك من غيره»^(١) . ولو كان علويًا ما استباح استرقاق العالويات ، ولو كان نائراً على الرق داعياً إلى تحرير العبيد بإخلاص ما أسقط العبودية عن الزوج وردّها على الأحرار ، بل كان يُبقي لهم حرّيتهم . ويبدو أنه لم تدر بذهنه خطة واضحة لنمط من أنماط الاشتراكية يصحح به معيشة الناس عبيداً وأحراراً ويصلح به أوضاعهم المالية والاقتصادية . ولذلك حوّل ثورته سريعاً من ثورة ضد الملاك الإقطاعيين إلى ثورة ضد الدولة ، فالدولة يجب أن تقاوم ويقاوم معها الخلفاء وولايتهم . ويذهب بعض المؤرخين إلى أنه كان يعتقد آراء الأزارقة من الخوارج إذ كان يستحلّ مثلهم قتل نساء المسلمين وأطفالهم ، وكان يرى رأيهم في أن المسلمين جميعاً كافرون وينبغي قتالهم واستئصالهم حتى لا تبقى منهم باقية ، ويحاول المسعودي أن يبرهن على أنه كان يؤمن بمبادئ الخوارج بشواهد مختلفة ، منها أنه كان يبدأ خطبه بعبارة الخوارج المشهورة التي رددوها حين ثاروا في وجه علي بن أبي طالب : « ألا لا حكم إلا لله » ، وأنه كان يردد أن الذنوب تفضي إلى الشرك على نحو ما كان يقول الخوارج من قديم بأن مرتكب الكبيرة كافر ، وأنه هو وأصحابه كانوا إذا خطبوا على المنابر ترحموا - مثل الخوارج الأولين - على أبي بكر وعمر ولم يذكروا عثمان وعلياً غضباً عليهما ولعنوا جابرة الأمويين والعباسيين^(٢) . وعلى نحو ما اعتزل الخوارج الأولون على بن أبي طالب إلى حروراء بقرب الكوفة مهاجرين عن الجماعة

وراجع النجوم الزاهرة ٤٨/٣ .

(١) مروج الذهب ١٢٠/٤ .

(٢) انظر مروج الذهب ١٠٨/٤ ، ١١٩ .

الضالة ، كما هاجر الرسول عليه السلام عن أهل مكة إلى المدينة ، كذلك هاجر صاحب الزنج بأتباعه إلى سببخة بآخِر أنهار البصرة تسمى سبخة أبي قرّة ، فأقام فيها ، وأمر أصحابه باتخاذ الأكواخ بها ، وبثّ الزنج والسود يُغيّر بهم على القرى وينهب الأموال والدواب^(١) ، ثم تحوّل إلى الجانب الغربي من نهر أبي الحصيب واتخذ عليه مدينة^(٢) سماها « المختارة » بسّنى له فيها دوراً حصينة ، وأمر أصحابه بالبناء فيها .

وكرّرت إغاراته على البصرة وقراها ، فاستغاث أهلها بالخليفة المهندي ، فأرسل إليهم في سنة ٢٥٦ جيشاً أكثره من الفرسان فلم يستطع الوصول إلى مدينة صاحب الزنج لكثرة ما كان يقوم دونها من القنوات والنخيل والأدغال . ويشعر صاحب الزنج بقوته ، فيقتحم مدينة الأبلّة مما يلي نهر دجلة ويقتل بها خلقاً كثيراً ، ويشتعل بها ناراً تأتي على كثير من منازلها ، إذ كانت مبنية من خشب الساج ، ويعمل فيها النهب والسلب . ويهاجم بعدها مدينة عبّادان ، وكان أهلها قد سمعوا ما صنعه بمدينة الأبلّة ، فألقوا له عن يد ، وانضمّ إليه من كان بها من العبيد ، ونهب كل ما كان بها من السلاح والمثونة . وولّى وجهه نحو مدينة الأهواز فدخلها بعد مناوشات قليلة ، واستولى على كل ما كان بها من الأسلاب والأمتعة^(٣) .

وتولى المعتمد الخلافة ، فأرسل إليه في سنة ٢٥٧ هـ جيشاً كثيفاً انصر على بعض كتائبه ، غير أن الزنج استروا منه بالقنوات والأدغال ، فاضطر إلى الانسحاب ، ونازلهم منصور بن جعفر الخياط بجيش ثان لم يصنع شيئاً^(٤) . وما يلبث صاحبهم أن يهاجم البصرة . وكان يردّد على مسامع أصحابه أنه اجتهد في الدعاء عليها أن يصيبها الخراب من جميع جهاتها ، وأنه خوطب في أمرها ، فقيل له : إنما البصرة خبيرة لك تأكلها من جوانبها . وانضمّ إليه حينئذ كثير من الأعراب ، هاجمها بهم وبأتباعه من الزنج والعبيد في أثناء صلاة أهلها إحدى الجمعات ، وقد انقضّ عليها من ثلاث جهات ، معملاً فيها النهب والسلب والقتل وإشعال

(٣) انظر الطبري ٤٧٠/٩ وما بعدها .

(٤) طبري ٤٧٨/٩ .

(١) طبري ٤٣٧/٩ .

(٢) طبري ٤٧٠/٩ .

النار^(١)، وتقول أقل الروايات مبالغة إن عدد القتلى بلغ ثلثمائة ألف بين ذكر وأُنثى وشيخ وطفل وإنه أحرق المسجد الجامع وأحبال البلدة أنقاضاً ، يقول المسعودي : « واختنى الناس ذعراً في الدور والآبار ، وكانوا يظهرن بالليل فيأخذون الكلاب فيذبجونها ويأكلونها ، وكذلك الفئران والسنائير ، وأفئونها حتى لم يقدرها منها على شيء ، وكانوا إذا مات منهم الواحد أكلوه ، وعدموا مع ذلك الماء العذب »^(٢) وتسامع الناس والشعراء في بغداد وسامراء بهذه النكبة المروعة التي حلت بالبصرة ، فبكروها بدموع غزار ، وفي مقدمتهم ابن الرومي ، وقصيدته :

ذادَ عن مُقَلِّي لذيذَ المنامِ شغلُها عنه بالدموعِ السُّجامِ

ندبٌ حارٌّ لها وتفجع وتوجع لما نزل بها من تلك الكارثة التي لا تكاد تتخيلها الأوهام ، وقد مضى بصور قتلى الزنج وصرعاهم وانتهاكهم الحرمات وسببهم الحرائر المصونات بمزقات الثياب داميات الوجوه ، وكيف أشعلوا النيران فيها وحوَّلوا قصورها تلالاً ورماداً ، وكيف ملئوا شوارعها بالرعوس والجثث والأيدي والأرجل المبتورة ، وهو في تضاعيف ذلك يستصرخ الأمة لنجدة البصرة والذيادة عن الحرمات والفتك بالزنج الذين ارتكبوا آثاماً يشيب لها الولدان فتكماً لا يُسْتَبَقِي ولا يَدْرُ .

وكانما استجابت الدواة لصرخة ابن الرومي ، فجهزت جيشاً ضخماً بقيادة الموفق أخى الخليفة المعتمد ، وكان بطلا لا يبارى وصاحب رأى وحزم لا يدانيه حزم وتديبير لا يشبهه تديبير ، غير أن الزنج وصاحبهم استبرأوا منه بالقنوات وبالأدغال الملتفة والنخيل الكثيف . فندب إليهم منصور بن جعفر بن دينار فاستباحوا عسكره وقتلوه . فتقدم الموفق إلى نهر يسمى نهر معقل ، ونازل الزنج وهزمهم مراراً وأسر قائداً من قوادهم هو يحيى البحراني وأرسل به إلى سامراء حيث ذُبِح وأحرق^(٣) . وعاد الموفق إلى سامراء ، وخلّف على قتال الزنج موسى بن بقا ، ونشبت حروب متتابعة قُتِل فيها كثير من الجانبين^(٤) . ويروى المعتمد في سنة ٢٦١ على الأهواز قائداً من قواده يسمى أبا الساج ، وينازل الزنج وترجح كفتهم ، ويدخلون الأهواز وينهبونها ويحرقون دورها^(٥) .

(٤) طبري ٥٠٤/٩

(٥) طبري ٥١٣/٩

(١) طبري ٤٨١/٩

(٢) مروج الذهب ١١٩/٤

(٣) طبري ٤٩١/٩

وتُشغَلُ اللؤلؤة وقائدها الموفق ببيعقوب بن الليث الصفار ، وكان قد استولى على سجستان وكرمان وفارس وقضى على الظاهريين واستولى منهم على خراسان ، وأقبل بجموعه في سنة ٢٦٢ يريد الاستيلاء على بغداد ، ولم يكذب يلمٌ بدير العاقول على بعد اثني عشر ميلاً منها حتى تصدّى له الموفق وهزمه هزيمة ساحقة ، فرّ على أثرها إلى الأهواز ، وإلى ذلك يشير ابن المعتز في أرجوزته آفة الذكر إذ يقول عن الموفق :

وحاربَ الصفّارَ بعدَ الزّنجِ فطارَ إلا أنه في سَرَجِ
وفرّ من قُدّامه فراراً وكان قُدّماً بطلاً كرّاراً

وظل الموفق مشغولاً به بعد هزيمته إلى أن توفي سنة ٢٦٥ . وفي هذه الأثناء وجد صاحب الزنج الفرصة سانحة له ، فكان يُغَيِّرُ على بعض المدن ، يفتك بأهلها وينهبها من مثل الأهواز وواسط ودست ميسان . وكانت أنبأؤه لا تزال تصل إلى الموفق ، فصمم على منازلته ثانياً ، وجهزّ لخربه جيشاً جراراً تسنده سفن حربية ، وأسند قيادته إلى ابنه أبي العباس . (الذي ولى الخلافة بعد عمه المعتمد وتلقّب بالمعتضد) وكان شجاعاً حازماً من أهل الرأي الصائب مثل أبيه ، فخفّ إليه في ربيع الآخر لسنة ٢٦٧ فواقع قائداً يسمى سليمان بن جامع ومزق جنوده واستولى على ما كان بيده من قرى دجلة^(١) ، ودخل مدينة واسط وردّها على أهلها ، وعسكر بجيشه في جوارها ، وأخذ يقف بنفسه على القرى والمسالك المؤدية إلى صاحب الزنج ومدينته . وجمع له الزنج وحشدوا واتخذوا سفناً تسمى بالسُمَيْرِيَّات ، لكل منها أربعون مجدافاً والملاحون من فوقها يحملون السيوف والرايح والتروس ، ولكن أبا العباس عرف كيف يُنزل بهم هزيمة نكراء ، استولى في أثناءها على أكثر سُمَيْرِيَّاتهم^(٢) ، وأخذت هزائمهم تتلاحق . وبلغ الموفق نبأ بأن صاحب الزنج يعدّ جيشاً كثيفاً لمساعدة قائديه : سليمان بن جامع وعلي بن أبان ، فأعدّ جيشاً ضخماً بدوره لنصرة ابنه ، ومضى معه إلى حصن الزنج الشمالي في البطيحة الذي سموه باسم « المدينة المنيرة » وأوقعاً بقائد لهم يسمى الشعرائي وبجنده وقعة ماحقة . واتخذ

(١) طبرى ٥٥٧/٩ وما بعدها .

(٢) طبرى ٥٦١/٩ .

الموفق حينئذ خطة سديدة أن يعفو عن يستسلم له من جند العدو ويضمه إلى جيشه واستسلم له كثيرون^(١). واتجه إلى حصن الزنج الأوسط الذي سموه مدينة « المنصورة » وكان بجوار « طهيثا » والتقى هناك بسليمان بن جامع وأصحابه ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، واستولى على المدينة وكل ما بها من الأموال والذخائر والميرة ، وفرَّ سليمان على وجهه لا يلوى ، وفرَّ كثيرون من الزنج إلى الآجام المحيطة بالمدينة ، وأعلن الموفق مرة ثانية أنه يعفو عفواً تاماً عن كل من يستسلم راضياً ، واستسلم له كثيرون ، فكان يخلع عليهم ويضمهم إلى جيشه . وكانت سياسة قومية إذ أخذ كثيرون من أتباع صاحب الزنج يغادرون معسكره إلى معسكر الموفق^(٢). ومضى إلى الأهواز والقرى التي بينها وبين فارس ، وفرَّ عنها سريعاً قائدان من قواد الزنج هما المهلبى وبهبوذ بن عبد الوهاب تاركين وراءهما عتاداً ضخماً من الميرة احتواه الموفق . وكتبه كثيرون من فرسان هذين القائدين وجنودهما يطلبون الأمان فأمنهم وسلكهم في جيشه ، واستأمن قائد اسمه « متاب » وكثير من المقاتلين في سميريات الزنج وسفنهم^(٣). وتقدم الموفق بجموعه إلى المدينة « المختارة » حاضرة صاحب الزنج آخر معاقله . ورأى من مناعتها ما جعله يؤمن بأن حصارها سيطول ، فبنى لجيشه أمامها على الضفة الثانية لدجلة مدينة سماها « الموفقية » شيد فيها جميع المرافق ، وساق إليها أصناف المنافع ، وشدَّد في حصار المختارة ، حتى غدت كأنها سجن كبير اصحابها وأتباعه ، ونادى بأن الأمان مبسوط للناس أحمرهم وأسودهم ، واستسلمت له من الزنج جموع كثيرة ، إذ رأوا صاحبهم كالأسير وقد عزته الميرة والمؤن ، وفي ذلك يقول ابن الرومي للموفق من قصيدة طويالة^(٤) :

حَصَرْتَ عَمِيدَ الزَّنْجِ حَتَّى تَخَاذَلْتُ قُـوَاهُ وَأَوْدَى زَادُ الْمُتَزَوِّدِ
فَظَلَّ وَلَمْ تَقْتَلْهُ يَلْفِظُ نَفْسَهُ وَظَلَّ وَلَمْ تَأْسُرْهُ وَهُوَ مَقِيدُ
تُفَرِّقُ عَنْهُ بِالْمَكَايِدِ جُنْدَهُ وَتَزِدَادُهُمْ جُنْدًا ، وَجُنْدُكَ مُحْصَدُ^(٥)
وما زال الموفق يحاصر المدينة وصاحبها حتى رأى أن يشنَّ عليها حماة حاسمة سنة ٢٦٩ إذ هاجمت سفنه الحربية قصر صاحب الزنج وصمم على الفرار منه ، والتقى

(٤) زهر الآداب للحصرى ١٩٤/٣ .

(٥) محصد : مجتمع محكم .

(١) طبرى ٥٦٦/٩ وما بعدها .

(٢) طبرى ٥٧١/٩ وما بعدها .

(٣) طبرى ٥٧٥/٩ وما بعدها .

الموفق في هذه الأثناء يجيش له في غربي نهر أبي الحصيب فمزقه شر ممزق ،
 وطلب الأمان كثيرون من الزنج وقوادهم وفي مقدمتهم الشعراني وشبل^(١) بن سالم .
 وجمع الموفق المستأمنة من الزنوج العارفين بمسالك المدينة المختارة ومضايق طرقها
 وحصونها كى يحضوه النصيحة في الوصول إلى صاحبها ، ودكّوه راضين ، فاستولى
 على قصره في صفر لسنة ٢٧٠ بعد موقعة عظيمة ، ووافاه البشير بقتله ، فخرّله
 ساجداً على ما أولاه ، وأمر بصلب قائديه سليمان بن جامع وعلى^(٢) بن أبان المهلبى .
 وكان الموفق قد جرح جرحاً بليغاً في صدره في أثناء المعارك الأخيرة ، ولم يشنه ذلك
 عن الحرب حتى كُتِبَ له فيها النصر المبين ، ولذلك يقول ابن المعتز في تهنته بهذا
 النصر من قصيدة صور فيها بطوآته : (٣) .

شَقَّ الصَّفوفَ بسيفِهِ وَشَفَى حَزازاتِ الإِحْنِ
 دَامى الجِراحِ كَأَها وَرَدُّ تَفْتَحَ فى غُصْنِ

وبذلك انتهت ثورة الزنج ، ويقال إنه ذهب ضحيتها نحو مليون ونصف ،
 وأمر الموفق بالنداء في أهل البصرة والأبلة وكور دجلة والأهواز وواسط بقتل صاحب
 الزنج ورجوع كل مواطن إلى داره وبلده آمناً على نفسه وماله وأهله^(٤) .

٤

ثورة القرامطة

مرّ بنا في كتاب العصر العباسى الأول أن الشيعة كانوا فرقاً ، وظلت هذه
 الفرق نشطة في العصر العباسى الثانى ، وأهمها فرقة الزيدية التى حملت السلاح
 دائماً فى وجوه العباسيين ، ثم فرقة الإمامية التى كانت تعيش على التقية وتعمل سراً
 ضد العباسيين ، وقد انقسمت مبكرة إلى اثنى عشرية آمنت بأن الإمامة توالى
 فى اثنى عشر إماماً ، آخرهم محمد المهدي المنتظر المتوفى سنة ٢٦٠ للهجرة ، وإلى
 إسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وكان قد توفى قبل أبيه ، فقالوا إن

(٣) ذيل زهر الآداب ص ١٥٧ .

(٤) طبرى ٩ / ٦٦٣ .

(١) طبرى ٩ / ٦٤٣ .

(٢) طبرى ٩ / ٦٥٤ وما بعدها .

الإمامة انتقلت منه إلى ابنه محمد ، لأنها تنتقل حتماً إلى الابن الأكبر ، حتى لو مات في عهد أبيه . وأخذت تتكوّن سريعاً حول محمد الحركة ^(١) الإسماعيلية ، وكان الذي نظّمها ووضع مبادئها عبد الله بن ميمون القداح ، وهو فارسي كان واسع المعرفة بجميع المذاهب والأديان ، وأخذ في سرعة يكوّن حول محمد بن إسماعيل جمعية سرية تعمل على تقويض الدواة العباسية ، وكان يستعين على جذب الناس إليه بطرق تتناسب مع كل شخص ، فأشخاص يجذبهم بالسحر والشعوذة ، وأشخاص يجذبهم بإظهار التقوى والنسك . وكان يزعم أن دينه دين النور الخالص ، ودعا كل أعضاء جمعيته إلى الاشتراك في كل ما يكسبون مقيماً بينهم ضرباً من الألفة . وبدأ بدعوته في موطنه بالأهواز ، ثم تركها إلى البصرة وبعه رفيقه الحسين الأهوازي ، وأحس بمطاردة وإلى البصرة لهما ، فهرب مع رفيقه إلى « ساسمية » بقرب اللاذقية في الشام ، ومن هناك أخذ يرسل دعواته إلى العراق ، كما أخذ ينظم الدعوة الإسماعيلية باثناً فيها تعاليم مانوية فارسية وفلسفية يونانية غير بعض تعاليم جلبها من فرق الشيعة الغالية كفرقة الخطابية . ودعا في قوة إلى فكرة التأويل في الآيات القرآنية حتى يمكن فهم معانيها الباطنة المستترة أو قل معانيها الخفية التي تروى إليهما من بعيد . وزعم أن تاريخ الأمة ينقسم إلى حلقات ، كل حلقة يمثلها سبعة من الأئمة ، سابعهم هو الإمام الناطق الذي ينسخ بشريعته ما قبله من الشرائع ، أما الأئمة الستة قبله فأئمة صامتون . وزعم أيضاً أن أئمة الدعوة قسمان : أئمة حقيقيون مستورون أو مستترون ، وأئمة بجانبهم مستودعون وهم رموس الدعاة المسمون بالحجج ، وبذلك أصبح هو نفسه إماماً مستودعاً ، وتبعه على ذلك أبناؤه ، ومن هنا جاء الشك في نسب الأسرة الفاطمية الإسماعيلية التي حكمت مصر نحو قرنين من الزمان ، فهل كان أئمتها مستقرين أو كانوا مستودعين ؟ وجعل ابن ميمون الدعوة مراتب يصعد فيها التابعون ، وهي سبع مراتب ، مرتبة للعامة ، ومرتبة لمن فوقهم ، ومرتبة لمن مرّ عليه عام ، ومرتبة لمن مرّ عليه عامان ، ومرتبة لمن مرّ عليه ثلاثة أعوام ، ومرتبة لمن مرّ عليه أربعة أعوام ، ثم المرتبة السابعة ، وجعلت المراتب فيما بعد تسعاً .

وما يلبث عبد الله بن ميمون — وقيل بل ابنه أحمد خلفه — أن يرسل الحسين

(١) انظر في الحركة الإسماعيلية والقرامطة

كتاب عبد العزيز النوري ص ١٢٦ وما بعدها .

الأهوازي إلى الكوفة وسوادها ليدعو إلى الجمعية ، فالتقى في السواد بنبطى يحمل بعض الغلات على أنوار له اسمه حمدان ، كان أهل قرينته يلقبونه - فيما زعم الطبرى - لقباً بنبطياً هو قرهط لاحمرار عينيه الدائم^(١) ، وزعم بروكلمان أن معنى هذا اللقب المعلم السرى^(٢) . وكأنما وجد الأهوازي في هذا الرجل طلبته ، فدعاه إلى مذهبه واستجاب له في حماسة بالغة ، وأحس الأهوازي بدنو أجله ، فعهد إليه برياسة الدعوة ، وجدَّ فيها. حتى أصبحت له فرقة كبيرة دُعيت جميعها باسم القراهطة نسبة إليه . وكان داهية فأخذ في تنظيم الحركة ، وفرض على جميع أتباعه أن يدفع كل منهم سنويّاً درهماً واحداً ، ثم جعله ديناراً تأهباً للانتقال إلى دار الهجرة ، وفرض على أهل المرتبة السابعة سبعة دنائير ، ولم يلبث أن فرض على كل إنسان من أتباعه أن يؤدي إليه خمس ماله ، وأخيراً فرض عليهم جميعاً الألفة ، وهى الشركة فى الأموال ، وبذلك هياً لظهر نظام اشتراكى كامل . ولما اطمأن إلى نجاح دعوته أخذ يحلّ لأتباعه ترك الفرائض الدينية وأن يتخذوا بيت المقدس قبلتهم ويحجوا إليه ، وزعم لهم أن الصوم يومان فى السنة : يوم عيد المهرجان ويوم عيد النيروز وأن النبذ حرام والخمر حلال ، ووضع قانوناً هو أن كل من حاربه وجب قتله ، ومن لم يحاربه وخالفه يجب أخذ الجزية منه^(٣) . وفى سنة ٢٧٧ اتخذ لأتباعه دار هجرة بقرب الكونة سماها « مهما باد » نزلها كثيرون من الرجال والنساء . وكان أكبر معاوينة فى حركته صهره عبدان ، ويؤدكر له كتاب صور فيه طريق التابع ومراتبه السبع آنفة الذكر التى تنتهى به إلى الخضوع المطلق للإمام الخفى أو المستر ومثليه من الأئمة المستودعين .

وأقبل على الانضمام إلى الدعوة كثير من الفلاحين فى سواد الكوفة والبصرة لما وعدتهم به من تغيير ظروفهم الاقتصادية السيئة ، إذ كان الملاك الإقطاعيون يسوءونهم سوء العذاب مع التقدير الشديد فى الأجور ، وانضم إليها أيضاً كثير من الطبقة الكادحة فى المدن ممن كانوا يعيشون فى بؤس مدقع ، وقد وعدهم جميعاً حمدان وأتباعه بأنهم سينقلونهم من الشقاء إلى السعادة ومن الفقر وذله إلى الغنى وعزه . غير أنهم لم يقفوا

(١) طبرى ١٠/٢٦ .

(٢) الطبعة العربية) ص ٢٢٩ .

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان

(٣) طبرى ١٠/٢٥ وما بعدها .

جميعاً بدعوتهم عند إنشاء مجتمع اشتراكي ، إذ مضوا يدعون إلى التحلل من الدين الخفيف وفروضه حتى ليقول البغدادي إنهم أنكروا البعث والحساب والجنة والنار ، وقالوا : هل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب في الصلاة والصيام والحج والجهاد^(١) ، وزعموا : « أن الأنبياء كَنُوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وكل من ادعى النبوة كانوا أصحاب نواميس ومخاريق أحبوا الزعامة على العامة ، فخذعواهم بنزجات واستعبدوهم بشرائعهم »^(٢) . ومضى حمدان يتخذ لهم أعلاماً بيضاء دلالة على أن دينهم دين النور ، ويقال إنه كان يكتب عليها : (ونريد أن نَمُنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين) .

وقد أرسل مبكراً دعاة إلى اليمن جاهدوا فيها بدعوتهم وأحدثوا شعباً كثيراً ، ونزل « كلواذي » وأخذ يدير منها دعوته ، ومن أهم دعواته الذين اتخذهم حينئذ أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنباني . وجنَّابة من قرى بحر فارس ، وقد أرسل به إلى جنوبي إيران ، واستطاع أن ينشر هناك الدعوة ، والتفَّ حوله كثيرون اتخذ من نفسه مشرفاً على إدارة أمولهم . غير أن ولاية العباسيين تنبها لحركته هناك وصادروا ما جمع من أموال ، ففرَّ على وجهه إلى حمدان ، يبلغه الخبر ، فأمره أن يتجه إلى منطقة أخرى ، واختار له الأحساء في منطقة البحرين ، وهناك استجابت له قبيلة عبد القيس وعشايرها البدوية ، واستطاع لسنة ٢٨٦ أن ينشئ في تلك الأصقاع النائية دولة اشتراكية جعل عاصمتها « المؤمنية » بدلا من « هجر » العاصمة القديمة وهي المسماة اليوم باسم « الهفوف » « وفي السنة نفسها أغار على « القطيف » القريبة من البصرة وقتل من لقيه بها من الرجال والنساء^(٣) . وفي السنة التالية هددت جنوده البصرة^(٤) . وأحسَّ حمدان بقوته فأخذ يدفع أتباعه إلى الإغارة على قرى السواد ، وتصدَّى لهم بلر غلام الطائي . وأوقع بهم على غرة بنواحي رودميستان وقتل منهم مقتلة عظيمة^(٥) . ويعودون إلى الانتشار في سواد الكوفة لسنة ٢٨٩ ويفتك بهم شبل غلام الطائي ويقع في أسره قائدهم المعروف بابن أبي قوس^(٦) ، فيرسل به إلى المعتضد ،

(٤) طبرى ١٠ / ٧٥ .

(٥) طبرى ١٠ / ٨٢ .

(٦) في الطبرى : فرارس .

(١) الفرق بين الفرق البغدادي (طبعة محمد

محيى الدين عبد الحميد ص ٢٩٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٠٢ .

(٣) طبرى ١٠ / ٧١ .

فيضرب عنقه ، ويطلبه على الجسر في جماعة من القرامطة ، ويذكر ذلك ابن المعتز في أرجوزته آفة الذكر ، مندداً بالدعوة القرمطية ، قائلاً :

ابنُ أبي قَوسٍ لهمُ نبيُّ إمامٌ عدلٌ لهمُ مرَضِيٌّ
 خَفَّفَ عنهم من صلاةِ الفَرَضِ وقال : ناب بعضها عن بعضِ
 فاذهبْ إلى الجِسرِ تجده فارسا على طِيرٍ^(١) لَأَسِيرِ جالسا
 وتلك عقبى النِّىِّ والضلالِ والكُفرِ بالرحمنِ ذى الجلالِ

وهو يسجل هنا على القرامطة جهلهم حتى ليزعمون أن ابن أبي قوس نبي ، مع تخفيفهم للصلاة وكفرهم بالرحمن ، وسجل عليهم في الأرجوزة قبل هذه الأبيات الشريعة الجديدة التي اتخذوها وأنهم يجاهدون فيها عن إمام مختلف لا يظهر أبداً ومنذ هذا التاريخ الذى قُتل فيه ابن أبي قوس يختفى من العراق وسواده اسم حمدان وصهره عبدان ، ونفاجأ بداعية يتولى زعامة القرامطة مكانهما يسمى زكرويه^(٢) . ويبدو أنهما أحسباً بتغير في المبادئ التي^(٣) كانا يدعوان إليها ، فأرسل حمدان بعبدان إلى سَلَمِيَّة ليقف على حقائق الأمور ، فوجد أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح ترفى وخلفه ابنه الحسين ، ولما اجتمع به سأله عن الإمام الذى يدعون إليه وعن حججته ، فعجب الحسين من سؤاله ، وقال له : « من هو الإمام إذن ؟ » فأجابه عبدان إنه محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق الذى دعا له أبوك وكان حجته ، فاستنكر الحسين القداحى إجابته ، وقال له : إن الإمام إنما كان والده ، وحلَّ هو محله الآن . وعندئذ أدرك عبدان حقيقة القَدَّاحين وأنهم تظاهروا بالدعوة لمحمد بن إسماعيل خداعاً للناس وتمويهاً عليهم حتى يجتذبوهم إلى صفوفهم . وعاد عبدان إلى حمدان فوقفه على حقيقة الأمر ، وأشار عليه بوقف الدعوة وأن يجمع الدعاة ويبين لهم الحقيقة . وأخذ حمدان برأيه ، فوقف الدعوة في الأماكن القريبة منه ، ولم يستطع توضيحها لمن كانوا في الأماكن النائية ، وترك كلواذى واختفى هو وصهره عبدان من مسرح التاريخ ، ويبدو أن

. ٩٤ / ١٠

(١) طبر : : فرس .

(٢) الدورى ص ١٦٥ .

(٣) كان أحد دعاة قرمط المهين . الطبرى

القداحين عملوا على اغتيالهما ، واتخذ زكرويه أداة لتنفيذ هذا الاغتيال .

وعلى هذا النحو صارت رياسة الدعوة في سواد الكوفة والعراق إلى زكرويه الدندانى ، وكان أعظم نشاطاً من حمدان قروط وصهره عبدان ، ولما رأى الدولة تتعقب القرامطة بسواد الكوفة وأنه لا غناء عندهم سعى فى استغواء البدو من أسد وطبي وعيم وغيرهم ، وتابعتهم منهم جماعات ، غير أن كثرة البدو المحيطين بجنوبى العراق لم تستجب له ، فأرسل أولاده يحيى والحسين ومحمداً إلى عشائر قبيلة كلب فى بادية السماوة بين العراق والشام ، فأصاخوا لهم وبايعوهم ، وكان مما زعموه لهم أنهم من ولد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، حتى إذا رأوهم يدعونهم إلى العقيدة القرمطية نفروا منهم ولم يتابعهم إلا بنو العليص ، إذ بايعوا فى آخر سنة ٢٨٩ يحيى بن زكرويه متلقباً لهم بالشيخ وزاعماً أنه أبو عبد الله على بن محمد ابن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وقيل بل زعم أن اسمه محمد بن عبد الله . وزعم لهم فيما زعم أن أباه - ودعاه أبا محمود - يدعو له ، وأنه يتبعه فى السواد بالعراق وفى المشرق والمغرب مائة ألف ، وأيضاً زعم لهم فيما زعم أن ناقته التى يركبها مأمورة ، وأنهم إذا اتبعوها فى لقاء عدو نزل عليهم الفتح المبين ، وتكهن لهم أو ادعى فيهم الكهانة ، وأظهر لهم عضداً له ناقصة ، وذكر أنها آيته^(١) . ومضى فى سنة ٢٩٠ بمن تبعوه يعيث فساداً فى المدن السورية ، وكانت تتبع حينئذ الدولة الطولونية ، وكانت تعاني من ضعف شديد ، وكانت قد ولت عليها طغنجاً الإخشيدى قبل ولايته على مصر ، فأرسل لابن زكرويه جيشاً سرعان ما هزم وقتل قائده^(٢) . وقصد ابن زكرويه الرقة فى جمع كثير يقتل وينهب ، وواقع هناك جيشاً للخليفة المكتفى وهزمه وقتل قائده . وحاصر دمشق غير أنها صمدت لحصاره ، وسرعان ما قتل على أبوابها ، فبايع أتباعه أخاه الحسين ونادوا به خليفة من بعده ، وزعم لهم بدوره أنه أحمد بن عبد الله بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وأظهر لهم شامة فى وجهه المثلث ذكر أنها آيته ، ولذلك سُمى بصاحب الشامة ، ووفد عليه ابن عم له يسمى عيسى بن مهرويه ، فزعم أنه مثله من نسل جعفر الصادق ولقبه المدثر ، وزعم أنه المقصود بسورة المدثر^(٣) ! وأجابه كثير

(٣) طبرى ١٠ / ٩٦ .

(١) طبرى ١٠ / ٩٥ .

(٢) طبرى ١٠ / ٩٧ .

من البدو ، واشتدت شوكته ، فزحف بجموعه على دمشق وخافه أهلها فصالحوه على خراج يؤدونه إليه . وتقدم إلى حمص ، فتغلب عليها ، وخطب له على منابرها باسم المهدي المنتظر ، ثم سار إلى حماة والمعرة وبعلبك يقتل ويسفك الدماء وينهب . ونزل سلمية ، وبدأ يقتل من بها من بني هاشم ثم قتل أهلها أجمعين حتى صبيان الكتاتيب ، ولم يبق بها عيناً تطرف^(١) . ويظهر أنه كان يريد القضاء على الأئمة المستودعين من أسرة القداحين ومن وراءهم من الأئمة المستورين إن كان يوجد أحد منهم حقاً ، حتى يصفو الجو له وإلامته ودعوته وخلافته ، ونرى الطبري يحتفظ بكتاب منه إلى بعض عماله يستهله على هذا النمط : « بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله أحمد بن عبد الله المهدي ، المنصور بالله ، الناصر لدين الله ، القائم بأمر الله ، الحاكم بحكم الله ، الداعي إلى كتاب الله ، الذاب عن حرَم الله ، المختار من ولد رسول الله ، أمير المؤمنين ، وإمام المسلمين ، ومذل المنافقين ، خليفة الله على العالمين ، وحاصد الظالمين ، وقاصم المعتدين ، ومبيد الملحددين ، وقاتل القاسطين ، ومهلك المفسدين ، وسراج المبصرين ، وضياء المستضيئين ، ومشتت المخالفين ، والقائم بسند سيد المرسلين ، وولد خير الوصيين ، صلى الله عليه وعلى أهل بيته الطيبين ، وسلم كثيراً . . . »^(٢) .

وواضح أن الحسين بن زكرويه لم يكتف بأن يكون إماماً مستودعاً مثل القداحين ، بل رأى أن يكون الإمام المستور نفسه ، ولذلك ادعى له نسباً إلى محمد ابن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وتلقب بالمهدي وخليفة الله أمير المؤمنين . وفر منه عبيد الله المهدي رأس الدولة الفاطمية ، ومضى في فراره حتى شمالي إفريقيا . ولما تكاثرت فظائمه وضج أهل الشام منه بالشكوى إلى الخليفة المكتفي أرسل إليهم جيشاً جراراً بقيادة محمد بن سليمان ، فنازل الحسين وأتباعه بالقرب من حماة في المحرم لسنة ٢٩١ وسحقهم سحقاً ذريعاً . ففرّ كثيرون من جنده إلى البوادي ، وفر على وجهه مع بعض خاصته إلى الشرق ميمماً الفرات ، وأسروا هناك جميعاً ، وصلبوا ببغداد مع عشرات من القرامطة جيء بهم من الكوفة ، وكان بينهم بغداديون ذاقوا المصير نفسه^(٣) . ويذكر الطبري أن أختاً لصاحب الشامة — لعله الأخ الثاني

(٢) طبري ١٠ / ١٠٨ .

(١) طبري ١٠ / ١٠٠ .

(٢) طبري ١٠ / ١٠٥ .

المسمى محمداً - عاث ببعض الأعراب في نواحي دمشق لسنة ٢٩٣ ثم صار إلى طبرية فغلب عليها ودخلها وقتل عامة أهلها من الرجال والنساء ونهبها وانصرف إلى ناحية البادية^(١). وأرسل زكرويه في السنة نفسها داعية له إلى بادية الشام يسمى أبا غانم ، فالتفت حوله كثيرون وانتهب بهم بعض المدن القريبة من البوادي مثل بصرى وأذرعات ، وتعقبتهم جنود الخلافة من ماء إلى ماء ، وقتل أبا غانم أحد أتباعه^(٢) فقضى على تلك الثورة . وبذلك تنتهي حركة زكرويه في بوادي الشام ، إذ يقضى العباسيون عليهم هناك قضاء مبرماً ، وأحكم لهم ذلك أنهم قضوا في الوقت نفسه على الدولة الطولونية التي كانت قد ضعفت ضعفاً شديداً ، مما مكن لزكرويه وأبنائه وأتباعه أن يحدثوا هناك شغباً وفتناً كثيرة .

واستعادت الدولة سيطرتها كاملة على سواد الكوفة ومن كان به من أتباع زكرويه ويذكر المؤرخون أنه أنفذ إلى البدو داعية له من أهل السواد يسمى القاسم بن أحمد يدعوهم للخروج معه ومع شيعته من سواد الكوفة ، واجتمع له كثيرون ، حتى إذا كان المحرم من سنة ٢٩٤ هاجم قوافل الحجاج في أوبتها من المسجد الحرام ونهب جميع ما كان معها من الأموال مما قُدِّرت قيمته بنحو مليونين من الدنانير وقتل من الحجاج نحو عشرين ألفاً ، وبلغ النبا بغداد ، فندب له الخليفة المكتفي وصيف بن صوارتكين في جيش جرار ، فلقيه في الرابع من شهر ربيع الأول وقتل من شيعته مقتلة عظيمة ، وخلص بعض الجند إلى زكرويه فضره بالسيف وهو فارضه اتصت برأسه ، فاستسلم ، وأخذ أسيراً ، وأسروا نائبه وخواصه وابنه وأقاربه وكاتبه وامراته ، وحمل وهو جريح فتوفي في الطريق إلى بغداد من أثر الضربة^(٣) . وبذلك قُضى على حركة زكرويه في سواد الكوفة وبوادي الشام قضاء نهائياً .

وإذا كانت حركة القرامطة قد باءت في هاتين المنطقتين بإخفاق ذريع فإنها نجحت إلى حد بعيد في منطقة الأحساء والبحرين على يد أبي سعيد الحسن بن بهرام الجسّابي الذي مرّ ذكره آنفاً ، وكان من كبار دعاة حمدان قرمط ، واستطاع أن

(٣) طبرى ١٠/١٢٤ وعريب ص ١١
والنجوم الزاهرة ٣/١٥٩ .

(١) طبرى ١٠/١٢١ والنجوم الزاهرة

٣/١٥٨ .

(٢) طبرى ١٠/١٢٢ .

يؤسس هناك دولة ظلت آماداً متطاولة إلى نحو منتصف القرن الرابع إذ دخلوا منذ سنة ٣٥٨ في طاعة الخليفة العباسي وخطبوا له على المنابر . وكانت تسود في دولة أبي سعيد الروح الاشتراكية التي بثّها أستاذه حمدان قرمط ، وعظم أمره . وكثيراً ما كان يحدث لعهد الخليفة المكتفي أن يتقدم بجنوده نحو البصرة ، وتلقاه جيوش الخلافة ، ويقتل الطرفان قتالاً شديداً^(١) . وما زال يسوس دولته ، حتى قتله غلام له صقلبي في سنة ٣٠١ وقتل معه جماعة من قواده^(٢) ، فقام بالأمر من بعده ابنه أبو طاهر سليمان بن الحسن الجنّابيّ ، ونراه يهاجم البصرة بأتباعه بمجرد استيلائه على الحكم^(٣) ، حتى إذا كانت سنة ٣٠٧ عاد إلى مهاجمتها وإعمال النهب والسلب فيها^(٤) . ودخلها لسنة ٣١١ في ألف وسبعمائة من أتباعه ، وضعوا السيف في أهلها ، وقتلوا واليها سبكاً المفلحي ، وأحرقوا المريد وبعض الجامع ومسجد قبر طلحة ، وظل بها سبعة عشر يوماً يحمل على إبله ما نهبه من الأموال والمتاع^(٥) . وفي السنة التالية رصد الحاجّ في مقدمهم من مكة لشهر المحرم وأخذ يوقع بقوافلهم ، وينهب الأموال ، ويأسر ويقتل ، وجاء الخبر إلى بغداد بذلك فوقع النّوح والبكاء وخرج النساء منشّرات الشعور مسوّدات الوجوه يلطن ويندبن^(٦) . وفي سنة ٣١٣ سار الحجاج من بغداد ومعهم جعفر بن ورقاء في ألف فارس ، فلقبهم أبو طاهر ، فناوشهم بالحرب ، فخاف الناس ورجعوا إلى بغداد ، فاتجه إلى الكوفة ، فقاتلوه ورجحت كفته ودخل البلدة وأقام بها ستة أيام ينهب ويسلب ، وكان مما نهبه منها أربعة آلاف ثوبٍ وشيٍ وثلاثمائة راوية زيت^(٧) . وفي سنة ٣١٥ خرج في ألف فارس وخمسة آلاف راجل متجهماً إلى الكوفة ، وعلم المقتدر فجهّز لخربه يوسف بن أبي الساج في عشرين ألفاً ، وتمتلا على أبواب الكوفة ، ودارت الدوائر على ابن أبي الساج وأسر جريحاً ، وقُتلت جماعة كثيرة من أصحابه . وبلغ ذلك المقتدر فراع الخبر ، وندب مؤنساً لقتاله ، فخرج بالعساكر إلى الأنبار في أربعين ألفاً ، وانضم إليه أبو الهيجاء بن حمدان وإخوته في أصحابهم وأعوانهم ، ووقعت بينهما

(٤) النجوم الزاهرة ٣ / ١٩٧ .

(١) طبرى ١٠ / ٧٥ ، ٧٩ ، ٨٥ .

(٥) الهداني ص ٤٠ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٠٧ .

(٢) طبرى ١٠ / ١٤٨ والهداني ص ١٤

(٦) الهداني ص ٤٣ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢١١ .

والنجوم الزاهرة ٣ / ١٨٢ .

(٧) الهداني ص ٤٨ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢١٣ .

(٣) الهداني ص ١٤ .

مناوشات ليست بذات بال ، مما أغرى أبا طاهر بمنازلة بلدان كثيرة في جنوب العراق سالباً ناهباً سافكاً للدماء^(١) . وفي السنة التالية دخل الرحبة جنوبي قسرقيسية شالي العراق ، ووضع فيها السيف ، فبعث إليه أهل قسرقيسية يطلبون الأمان فأمنها ، ثم دخلها . وتوجه إلى الرقة ، فأخذها ، وتفاقم أمره وكثر أتباعه^(٢) . حتى إذا كان موسم الحج لسنة ٣١٧ حدثت الطامة الكبرى إذ وافي أبو طاهر الحاج يوم التروية ، وهم يهلئون ويلبئون ، وقتل الحجاج قتلاً ذريعاً في فيجاج مكة وداخل البيت الحرام وهم متعلقون بأستاره ، ويقال إنه قتل منهم نحو عشرة آلاف ، طرح كثير منهم في بئر ززم ، وعترى البيت من كسوته وقلع بابه واقتلع الحجر الأسود وأخذه معه إلى هجر ، وظل هناك حتى رُدَّ إلى موضعه في عهد الخليفة المطيع سنة ٣٣٩ . ونهب جميع التحف التي زين بها الخلفاء الكعبة على مر الأزمنة وما كانوا رصعوها به من الجواهر النفيسة ، ويقال إنه كان يجلس على باب الكعبة والحجيج يُصرعون حوله في المسجد الحرام ، وهو ينشد مثل قوله :

أنا لله وبالله أنا
يخلق الخلق وأفنيهم أنا

ويقال إنه كان زنديقاً لا يصلي ولا يصوم ولا يؤدي فرائض الإسلام ، مع تظاهره بأنه مسلم وزعمه أنه داعية عبيد الله المهدي بإفريقيا^(٣) . ولم يحج أحد منذ هذا التاريخ حتى سنة ٣٢٦ ، خوفاً من شره وشر أتباعه من القرامطة ، غير أن شره لم ينحسر عن العراق ، إذ هاجم الكوفة لسنة ٣١٩ ، وعاود الهجوم عليها في سنة ٣٢٥ ونازلته جنود الخلافة في سنة ٣٣٠ ، ومات في شهر رمضان لسنة ٣٣٢ بالجندرى بعد أن تقطعت بسببه أوصاله وأطرافه وهو ينظر إليها ، وبعد أن طال عذابه ورأى في جسده العيسر . وخلفه أخوه سعيد^(٤) بن الحسن الجنابي ، وهو الذي رُدَّ الحجر الأسود إلى مكانه بالكعبة ، وكان العراق قد دخل في حكم البويهيين فضعف شأن قرامطة البحرين والأحساء ، واضطروا بأخرة إلى الدخول في طاعة الخلافة العباسية ونسبند عقيدتهم القرمطية .

الزاهرة ٣ / ٢٢٤ .

(١) الهداني ص ٥٢ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢١٧ .

(٤) الهداني ص ١٠٢ ، ١٣٩ والنجوم

(٢) النجوم الزاهرة ٣ / ٢٢٠ .

الزاهرة ٣ / ٢٢٨ ، ٢٧٥ ، ٢٨١ .

(٣) الهداني ص ٦٢ عريب ص ٩٥ والنجوم

أحداث مختلفة

لعل أهم ما أمر به المتوكل في أوائل خلافته وَقَفُ القول بخلق القرآن وإنهاء حمل الناس بالقوة عليه وما كان من العنف بجلّة الفقهاء السنيين وفي مقدمتهم أحمد ابن حنبل ممن رفضوا اعتناق هذا القول، وكانت المحنة بذلك بدأت - كما مرّ في كتابنا العصر العباسي الأول - منذ عصر المأمون سنة ٢١٢ ، إذ جعل القول بخلق القرآن عقيدة رسمية للدولة وكتب إلى الآفاق بامتحان الفقهاء فيها ، فمن لم يعلن جهاراً اعتناقه لها ضُرب وقُبِد وأُرسل إلى بغداد لمحاكمته وحبسه . وتظل المحنة قائمة في عهد المعتصم ، وإن خَفَّت حِدَّتْهَا كثيراً ، ثم تعود إلى الاشتداد لعهد الواثق ويعود معها العنف بالفقهاء ممن لا يجاهرون بأن القرآن مخلوق . حتى إذا ولي المتوكل أمر بوقف هذا العنف وكل ما اتصل به من امتحان وأن يترك الناس الخوض في ذلك ويهتموا بالحديث والسنة^(١) . وبذلك هيأ لأن يأفل شأن الاعتزال ورجاله الذين دفعوا إلى هذه المحنة وظلوا يمدونها بالحطب الجزل ، حتى أطفأ المتوكل نارها المشتعلة وأحالها رماداً ، وكان لذلك أثر بعيد في الحياة العقلية والفنية ، فقد أفل نجم المعتزلة أصحاب الفكر الحر ، وتألق نجم أهل السنة المحافظين ، وأخذ الذوق المحافظ يسود في كل شيء في الشعر وفي الغناء ، وحتى في الدراسات الدينية ، إذ ظهر مذهب داود الظاهري الذي يرفض القياس .

وثار في أذربيجان لسنة ٢٣٤ ، محمد بن البيهق وقضى على ثورته . وتدخل سنة ٢٣٦ ، فيأمر المتوكل بهدم قبر الحسين في كربلاء وهدم ما حوله من المنازل والدور وأن يُحَرِّثَ ويبنر ويسقَى موضع قبره ويُمْنَعَ الناس من إتيانه ، فحَرِّثَ الموضع وزرَع ما حوَالِه حتى يزول أثره ، وحلت بذلك محنة عظيمة على آل أبي طالب وشيعتهم . ويقول المسعودي إنه حين انتهى الفعلة إلى الحفرة وموضع اللحد لم يروا فيه أثر جثة ولا غيرها^(٢) . ويقول الطبري : نُودَى في

(١) مروج الذهب ٣/٤ والنجوم الزاهرة ٢/٢٧٥ . (٢) مروج الذهب ٤/٥١ .

الناس : من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة بعثنا به إلى السجن ، فامتنع الناس من المصير إليه^(١) . وكان ذلك إنذاراً شديداً للعلويين ، فلم يتحرك منهم أحد لعهد المتوكل خشية بطشه ، وبالمثل لم يتحرك الخوارج لا في الموصل ولا في خراسان .

وتظل الغزوات الصيفية للروم البيزنطيين - ويسمونها الصائفة - قائمة طوال عصر المتوكل ، وينزلون في سنة ٢٣٩ دمياط وينهبون كثيراً من الأمتعة والأموال ، ثم يفرون إلى البحر المتوسط وما وراءه^(٢) . ويحاولون الإغارة على سُمَيْسَاط وبعض الثغور في شمال الشام والموصل ، ويُسنزل بهم على بن يحيى الأرمي في سنة ٢٤٥ هزائم متلاحقة^(٣) ، ويدور العام ، فينكل بهم في غزو الصائفة ويعود بأسلاب وغنائم كثيرة ، كما ينكل بهم الفارس المغوار عمر بن عبد الله الأقطع وتكثر مغامره ، ويغزوهما الفضل بن قارن في عشرين مركباً ويفتح حصن أنطاكية^(٤) . وما يزال غزو صقلية مستمراً في عهد المتوكل منذ نزول العرب بها في عصر المأمون حتى تستسلم نهائياً^(٥) . وفي ديوان البحتری غزوة بحرية دمر فيها أسطول المتوكل بقيادة أحمد بن دينار أسطول الروم لم يعرض لها المؤرخون^(٦) .

ويولّى المتوكل سنة ٢٣٧ محمد بن عبد الله بن طاهر الشرطة وأعمال السواد في العراق ونيابته في بغداد ، وهي وظيفة تشبه وظيفة المحافظ لعصرنا ، وظل يتولاها حتى وفاته سنة ٢٥٣ وظلت بعده في بيته طويلاً . وفي سنة ٢٤١ ثارت البجة في شمال السودان على والي مصر وامتنعت من دفع الحراج ، واشتبك معها محمد بن عبد الله المعروف بالقمى في سلسلة من المعارك توالى فيها انتصاراته ، وما زال يقاتلهم حتى أنابوا إلى الطاعة وعادوا إلى أداء ما كانوا يؤدونه من الحراج^(٧) . وفي سنة ٢٤٤ غضب المتوكل على بختيشوع المتطبب وصادر أمواله وأمر بنفيه إلى البحرين^(٨) . ويقول المسعودي : « كانت أيام المتوكل أحسن أيام وأنصرها من استقامة الملك وشمول الناس بالأمن والعدل »^(٩) .

١٨٠ ، ٢٢٨ وما بعدها .

(٦) ديوان البحتری (طبع دار المعارف)

٩٨٠/٢ .

(٧) طبرى ٩ / ٢٠٣ وما بعدها .

(٨) طبرى ٩ / ٢١١ .

(٩) مروج الذهب ٤ / ٤ .

(١) طبرى ٩ / ١٨٥ .

(٢) طبرى ٩ / ١٩٣ وانظر العرب والروم

لفازيليف ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة ص ١٨٧ .

(٣) طبرى ٩ / ٢١٨ .

(٤) طبرى ٩ / ٢١٩ .

(٥) العرب والروم ص ١١٥ ، ١٢٩ ،

وخلفه ابنه المتصر في شوال سنة ٢٤٧ ، وكانت خلافته قصيرة لم تزد على ستة أشهر ، وفيها وجه جيشاً كثيفاً بقيادة وصيف لغزو الصائفة^(١) . ولعل أهم أعماله أنه أمر بالكف عن العلويين وألا يمنع أحد من زيارة كربلاء والنجف وما بهما من قبور آل أبي طالب ، وأمر برد أرض فدك في الحجاز إلى أولاد الحسن والحسين ، وأطلق أوقاف العلويين جميعاً وأمر ألا يتعرض أحد لشيعتهم بأذى أو مكروه^(٢) . وخرج لعهد محمد بن عمرو الشاري بناحية الموصل ، وتجمع حواه كثيرون من الخوارج تزعمهم وحضهم على الثورة وانضم إليهم كثيرون من الأكراد ، فوجه إليه جيشاً بقيادة سيبا التركي ، هزمه هزيمة ساحقة ، وساقه مع طائفة من أصحابه أسيراً إلى سامراء ، فقتلوا وصلبوا جميعاً^(٣) . وفي عهده بدأ يعقوب ابن الليث الصفار ثورته في سجستان وتحرك إلى هراة^(٤) .

ويتولى الخلافة المستعين بالله نحو ثلاث سنين وثمانية أشهر ، وفي عهده يعود أبناء عمه الطالبين إلى التحرك ، فيخرج بالكوفة لسنة ٢٤٨ يحيى بن عمر الطاطبي حفيد زيد بن علي زين العابدين ، ويرسل إليه المستعين بجيش كثيف يقضي على ثورته ويقتل ويحتمل رأسه إلى بغداد ويصلب ويبيكه كثير من الشعراء لورعه وتقواه^(٥) ، وجيمية ابن الرومي في رثائه والتفجع عليه مشهورة ، وفيها يقول :

سلامٌ وريحانٌ وروحٌ ورحمةٌ عليك وممدودٌ من الظل سَجَسَجٌ^(٦)

وفي سنة ٢٥٠ يخرج الحسن بن زيد، وهو من حفدة زيد بن علي زين العابدين ابن علي بن أبي طالب ، وكان خروجه بطبرستان ويغلب هناك على بلاد الديلم جميعها^(٧) ، ويظل ثابتاً لجيوش الدولة العباسية حتى يلي نداء ربه لعهد المعتمد سنة ٢٧٠ ويخلفه من بعده أخوه محمد^(٨) . ويخرج على المستعين علويون مختلفون

- (١) طبري ٢٤٠/٩ والعرب والروم ص ٢١٧ .
 (٢) مروج الذهب ٤ / ٥١ .
 (٣) طبري ٢٥٥/٩ ومروج الذهب ٤ / ٥٣ .
 (٤) طبري ٢٥٥/٩ .
 (٥) طبري ٢٦٦/٩ ومروج الذهب ٤ / ٦٨ .
 (٦) والفخرى ص ٢٤٠ .
 (٧) سجع: معتدل لا حار ولا شديد البرد .
 (٨) طبري ٢٧١/٩ ومروج الذهب ٤ / ٦٨ .
 (٩) طبري ٢٦٦/٩ ومروج الذهب ٤ / ٦٨ .
 ١٧٧ .

بالتري وقزوين والكوفة ويقضى عليهم جميعاً^(١). ويتحرك بعض الخوارج ويلقاهم المصير نفسه^(٢). وتحدث حينئذ أكبر فاجعة أصابت الغزاة المقاتلين في جبهة الروم إذ استشهد في سنة ٢٤٩ بطلان مغواران من أهل البأس والنجدة والمكيدة في الحروب ، هما عمر بن عبيد الله الأقطع وعلى بن يحيى الأزني اللذان طالما دوخا الروم وأنزلا بهم هزائم ساحقة ، أما عمر فكان يغزو الصائفة في جمع من أهل مَلَطِيَّة فلقبه إمبراطور بيزنطة في جيش جرار بلغ خمسين ألفاً ، ونشب القتال بينهما ، واستبسل عمر في الجموع القليلة التي كانت معه استبسالا رائعاً ، ولكنهم استطاعوا لكثرتهم أن يحيطوا به ، فاستشهد في ألف من المسلمين الأبرار ، بعد أن أبلوا في المعركة بلاءً عظيماً . وأما على فكان قد انصرف من الثغور إلى ديار بكر شمالي العراق ، وجاءه نعي عمر المفجع ، فاستشاط غضباً وأسرع إليه في أربعمئة مقاتل ، وهو لا يعلم عدّة الروم ، فأحاطوا به مثل صاحبه ، ومضى إلى ربه شهيداً^(٣)

وبويج بالخلافة المعتز في المحرم من سنة ٢٥٢ وفي عهده وقع مفلح بعبد العزيز ابن أبي دلف الثائر بالكرج وهزمه هزيمة نكراء^(٤) ، ودخل مفلح لسنة ٢٥٥ طبرستان ، وهزم الحسن بن زيد العلوي وأحرق منازله ، وفر الحسن إلى الديلم ، وتوجه مفلح نحوه^(٥) . وعلا حينئذ شأن يعقوب بن الليث الصفار ، واستولى على كرمان وفارس^(٦) . وأقطع المعتز حاجبه بايكباك مصر لسنة ٢٥٤ فولى عليها أحمد بن طواون ، وسرعان ما أسس بها الدولة الطواونية .

وتولى الخلافة المهتدي في سنة ٢٥٥ ومكث في الخلافة أحد عشر شهراً ، وكان صالحاً تقياً عادلاً طاهر السيرة ، أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وحرّم الشراب والاختلاف إلى القيان للسمع ، وبنى قبة جلس فيها لاستقبال العام والخاص ، والنظر في المظالم وأقل من المطعم والمشرب ، وكان يخطب بنفسه خطبة الجمعة ويؤم الناس في المسجد الجامع ، وكانت الحلفاء قبله تنفق على موائدها في كل يوم

(٤) طبرى ٣٧٣/٩ .

(٥) طبرى ٣٨٢/٩ .

(٦) طبرى ٣٨٢/٩ وما بعدها .

(١) مروج الذهب ٦٩/٤ .

(٢) طبرى ٣٠٨/٩ .

(٣) طبرى ٢٦١/٩ ومروج الذهب ١٢٥/٤ .

والعرب والروم ص ٢٢٠ ، ٢٢٤ .

عشرة آلاف درهم ، فأزال ذلك وجعل لمائدته وسائر مؤنه كل يوم نحو مائة درهم ، وكان يواصل العبادة والصيام^(١) ، فبدا غريباً عن روح العصر ، وثقل حكمه على الأتراك فأعملوا الحيلة عليه حتى قتلوه . وفي عهده بدأ أمر صاحب الزنج يظهر على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع .

وخلفه المعتمد في رجب سنة ٢٥٦ وكان يؤثر اللذة ويعكف على الملاهي غير أنه رُزق حظوة بأخيه أبي أحمد الموفق وكان حازماً مقداماً بعيد النظر عارفاً بأهـ و الحرب وشئون السياسة ، فغلب على الخلافة وتديبها ، وأصبح المعتمد معه كالحججور عليه . وكانت الخلافة العباسية تردت في هوة بعيدة القرار ، فأعاد إليها هيبتها ، وقضى كما مرّ بنا على ثورة الزنج قضاء مبرماً ، وهزم يعقوب بن الليث الصفار هزيمة نكراء ، اضطر على إثرها إلى الفرار لإبقاء على نفسه من الموفق وجنوده . وتحركت حينئذ الحوارج في الموصل وخراسان ، وقضى على حركاتها جميعاً^(٢) . وكان القواد من أصحاب الثغور وغيرهم لا يزالون ينازلون الروم في الصوائف وفي مقدمتهم البطل يازمان الذي نكّل بهم لسنة ٢٧٤ ودارت السنة فغزاهم في البحر ، وأخذ لهم أربعة مراكب^(٣) .

وبلى الخلافة المعتضد لسنة ٢٧٩ ، وكان صورة قوية للحزم والجد اللذين ليس بعدهما جد وحزم ، كما كان فارساً شجاعاً وبطلا مغواراً أنقذ الخلافة مع أبيه الموفق من الزنج الثائرين الذين دوخوا القواد قائداً تلو قائد . وفي أيامه سكنت الفتن وصلحت البلدان واستقامت له الأمور ورخصت الأسعار . وأدبل له دائماً من المخالفين عليه ، وكانت جيوشه تغدو وتروح بالنصر ، ومن ظفر بهم هرون الشاري الذي خرج بالموصل^(٤) وثار عليه بأصبهان والجيل في سنة ٢٨٣ بكر بن عبد العزيز بن أبي دلف العجلي الشيباني فوجه إليه عيسى النوشري ففرّ من أمامه ، ثم عاد إلى الظهور في سنة ٢٨٤ ، وقضى على ثورته . ونازل له السامانيون محمد بن زيد العلوي أخا الحسن الذي مرّ ذكره ، إذ هاجموه بطبرستان وقتلوه على أبوابها^(٥) لسنة ٢٨٧ . ونازلوا له الترك وفتحوا حاضرتهم وأسرؤا ملكهم وامراته خاتون ونحواً من

(٤) طبرى ١٠ / ٤٣ .

(٥) طبرى ١٠ / ٨١ وروج الذهب ٤ / ١٧٧ .

(١) مروج الذهب ٤ / ٩٧ ، ١٠٣ .

(٢) طبرى ٩ / ٥١٢ ، ٥٣٢ .

(٣) طبرى ١٠ / ١٣ وما بعدها .

عشرة آلاف مع ما أخذوا من الأسلاب والغنائم الوافرة^(١)، وغزت جيوشه الروم وكبدتهم خسائر فادحة، وغزاهم قائده راغب في البحر لسنة ٢٨٥، واستولى منهم على مراكب كثيرة، غير ما أغرقه، وضرب أعناق ثلاثة آلاف منهم وفتح كثيراً من حصونهم^(٢). ويغادر أبو عبد الله الشيعي في عهده الشام إلى المغرب وينزل بقبيلة كتامة ويدعوهم إلى عبيد الله المهدي جد الخلفاء الفاطميين الذي كان قد فرّ من الحسين بن زكرويه، على نحو ما أسلفنا في حديثنا عن القرامطة والإسماعيلية^(٣). ويحدث لعهد المعتضد حادث مفرح إذ يوغر دميانة أحد قواده في الثغور صدره على أهل طرسوس لشيء كان في نفسه منهم، ويشير عليه أن يحرق سفنهم التي كانوا يغزون فيها الروم. والعجب العجيب أن يصيح له المعتضد المعروف بكياسته، غير أن هذا الشيطان عرف كيف يؤثر فيه، فأمر بإحراق جميع سفنهم البحرية وإحراق جميع آلاتها الحربية، يقول الطبري: «وكانت خمسين مركباً قد أنفقت عليها أموال جليلة فأضرب ذلك بالمسلمين وكسر في أعضادهم وقوى به الروم وأمنوا أن يُغزروا في البحر أو تُدمر سفنهم وأساطيلهم فيه»^(٤).

ويتولى الخلافة المكتفي سنة ٢٨٩، وكان يتوخى العدل والإنصاف في حكمه، فردّ المظالم إلى أهلها ومالت إليه قلوب الرعية. وفي عهده تسمّ القضاء على زكرويه القرمطي ومن بقي من أبنائه وفتح جيشه المقيم بطرسوس أنطالية على ساحل البحر المتوسط عنوة، وقتل من أهلها خمسة آلاف، وأسر مثلهم، واستولى على ستين مركباً للروم حملها ما غنم من الرقيق والمتاع والذهب والفضة^(٥). ويذكر آدم ميز أنه في السنة نفسها، وهي سنة ٢٩٣، استولى المسلمون على مدينة سالونيق ثانية مدن الدولة البيزنطية وأسروا من أهلها اثنين وعشرين ألفاً^(٦). وفي السنة التالية غزت جنود المكتفي سلندو وآلس وفتح الله عليهم وقتلوا من أهلها مقتلة كبيرة^(٧). وفي السنة نفسها ظهر السفيناني بالشام، ودعا إلى نفسه، وتبعه نفر، فحملوا جميعاً مقيّدين إلى باب المكتفي^(٨).

(٦) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم ميز ترجمة الدكتور أبي ريذة (الطبعة الأولى) ٥/١
 (٧) طبري ١٣٠/١٠
 (٨) طبري ١٣٥/١٠

(١) طبري ٣٤/١٠
 (٢) طبري ٦٨/١٠
 (٣) انظر النجوم الزاهرة ١٢٤/٣
 (٤) طبري ٨٠/١٠
 (٥) طبري ١١٧/١٠

ويخلفه أخوه المقتدر سنة ٢٩٥ وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وما يوافق شهر ربيع الأول لسنة ٢٩٦ ، حتى يجتمع كثيرون من الكتاب والقضاة وذوى الرأي ويُجْمَعوا على خلعه وتولية ابن المعتز ، وتم له البيعة ، ولا يكاد يمضي عليه يوم وليلة حتى ينتقض الأمر عليه كما مر بنا في غير هذا الموضع ، فيقتل وتُردّ الخلافة على المقتدر ، ويصبح لعبة في أيدي الترك يحركونه كما يشاءون ، وتعود الدولة إلى سيرتها القديمة السيئة قبل المعتمد وأخيه الموفق . وكان في بيت المال يوم تولى الخلافة خمسة عشر مليوناً من الدينانير بدّها كلها ، وبدّد معها القناطير المقنطرة من الأموال التي كانت تُجَبِّي من أطراف الدولة الواسعة. وتحكمت أمه «شعب» ووصيفاتها في شئون الدولة ، وعاد الأتراك إلى طغيانهم وفسادهم ، فكثرت الرشوة وعمّ الظلم والبغى ، وكثرت الوزراء وكثرت مصادراتهم ومصادرات الكتاب والتجار ، كما كثرت الاستيلاء على أموال ذوى اليسار بغير حق ، مما ألمنا به في غير هذا الموضع . وكان هذا الفساد سبباً في كثرة الفتن والثورات ، وما توافى سنة ٣٠٠ للهجرة حتى يثور على الدولة بطبرستان والديلم الأطرووش العلوى وهو الحسن بن على الحسنى ، انقلب نفسه بالداعى ، واستطاع أن يبدّل في الإسلام كثيرين استجابوا له ، وبنى لهم المساجد ، وكان حصيفاً فاضلاً أصلح الله الديلم به^(١) . وأغار الروم على اللاذقية بحرراً وسبوا منها خلقاً كثيراً ، وردّ دميانة قائد الأسطول العربى في البحر المتوسط على هذا الغزو في السنة نفسها وهى سنة ٢٩٨ فغزا بأسطوله قبرص وفتح بها كثيراً من الحصون وحرق وسبى كثيرين^(٢) . وفى سنة ٣٠٤ غزا مؤنس بلاد الروم من ناحية مَلَطِيَّة وفتح حصوناً كثيرة^(٣) ، وردّ الروم على هذا الغزو فى سنة ٣١٤ فدخلوا مَلَطِيَّة بالسيف ، وقتلوا وسبوا ، وظلوا فيها أياماً^(٤) . وفى سنة ٣١٣ فتحت بلوخستان ، وكانت لا تزال وثنية فدخلت في دين الله .

وتولى الخلافة القاهر بالله سنة ٣٢٠ ، وكان مولعاً بالشراب والغناء ، وكان سفاكاً للدماء ، شديد البطش بمن يغضب عليه من الأتراك ، وقتل منهم نفراً في مقدمتهم مؤنس الملقب بالمظفر أكبر الحجاب في عصره وعصر المقتدر ، وهابه الناس وخشوا

(١) طبرى ١٠/١٤٩ ومروج الذهب ٤/٢١٩ (٢) النجوم الزاهرة ٣/١٩٠ .

(٣) النجوم الزاهرة ٣/٢١٥ .

(٤) النجوم الزاهرة ٣/١٨٥ .

(٢) مروج الذهب ٤/٢١٨ .

صواته ، ومع إدمانه للخمر أمر بتحريمها وتحريم السباع وقبص على المغنين وكسر آلات اللهو وأمر بتتبع الجوارى من المغنيات^(١) ، وما زال مخوف السطوة حتى احتيل عليه بعد سنة ونصف من خلافته فخلع وسُملت عيناه ، وهو أول من عوقب هذا العقاب الصارم من الخلفاء ، وهي عادة بيزنطية ذميمة ، وقد عاش بعدها سبعة عشر عاماً .

وخلفه الراضى بالله ابن أخيه المقتدر سنة ٣٢٢ ، وكان سمحاً جواداً مقرباً للعلماء والأدباء ، ولم يكن ينصرف عنه أحد من ندمائه إلا بخلعة أو صلّة ، ومن أهمهم أستاذه الصولى أبو بكر محمد بن يحيى وابن الأنبارى . ونخصّه الصولى بترجمة ضافية فى كتابه الأوراق ، فى القسم الخاص بأبناء الخلفاء ، روى فيها طائفة كبيرة من أشعاره ، وهو آخر خليفة له شعر مدون ، وآخر خليفة انفرد بتدبير الجند ، وآخر خليفة خطب فى صلاة الجمعة ، وآخر خليفة جالس الندماء^(٢) . وفى عهده قُتل ابن مقلّة الأديب والخطاط المشهور بعد أن اعتلى كرسى الوزارة مراراً . وعظّم أمر ابن رائق بعد توليه الوزارة ، إذ قلّده الراضى جميع أمور الدولة ، غير أنه لم يلبث أن صار محجوراً عليه وكالأسير فى يده^(٣) . وفى أوائل عهده سنة ٣٢٤ شنّ سيف الدولة الحمدانى أول حرب على الدمستق فى آمد^(٤) ، وتوالت بعد ذلك حروبه مع البيزنطيين .

ويتولى الخلافة المتى سنة ٣٢٩ ، وكان ناسكاً تقياً يصوم الدهر ، ولم يشرب النبيذ قط ولا اتخذ جلساء ولا ندماء ، وكان يقول : المصحف نديمى ولا أريد جلسياً غيره ، غير أنه كان تعس الحظ إذ جاء بأخرة وقد فسدت الأمور وأفلت الزمام من يد الدولة ، لاشتداد المنافسة بين الوزراء والأمراء وخاصة آل البريدى بالموصل . وبلغ من اضطراب الأحوال أن استولى أبو الحسين البريدى على بغداد ، ومضى البريدى يسوم الناس ظلاماً فادحاً فى الحراج وغير الحراج ، ويأخذ أموال التجار وغيرهم غضباً ، أما الخليفة فلجأ إلى الحمدانيين فى الجزيرة ،

(٣) النجوم الزاهرة ٣ / ٢٥٨ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(١) التنبيه والإشراف

ص ٣٨٨ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٣٩ .

(٢) النجوم الزاهرة ٣ / ٢٧١ .

وما زال ينتقل معهم إلى أن قدموا به إلى بغداد وهرب منها البريدي ، وخلع حينئذ على الحسن بن عبد الله بن حمدان ولقبه بناصر الدولة وعلى أخيه عليّ ولقبه بسيف الدولة^(١) . ولم تهدأ الأمور في بغداد فقد تفاقم أمر العيساريين وازداد النهب حتى خلت الدور من أهلها وعُظلت المساجد والأسواق وأغلقت الحمامات . وكأنا كتب على المتقي أن يعيش سني خلافته بائساً تعيساً . حتى القصور وقبابها يصيبها الدمار فقد سقطت لأوائل خلافته قبة قصر المنصور الخضراء ، وكأنا كان ذلك إيداناً بأقول نجم الدولة العباسية ، إذ كانت تلك القبة تاج بغداد وعلمها المعلم^(٢) . وفي سنة ٣٣١ زحف الروم على أرزن بأرمينية وميسافارقين ونصيبين بديار بكر ، فقتلوا وسبوا كثيرين ، وطلبوا من أهل مدينة الرها مندبلاً من كنيسةتها زعموا أن المسيح عليه السلام مسح به وجهه فارتسمت صورته ، وقالوا إن سلمتموه لنا أطلقنا كل من بأيدينا من أسرى المسلمين . وكتب الخليفة المتقي في ذلك ، فاستفتى الفقهاء والقضاة ، واختلفوا في الرأي ، ورجحت كفة من قالوا بإعطائهم إياه ، لأن خلاص المسلمين من الأسر أوجب . فأرسل المندبيل إلى الروم وأطاعت الأسارى ، وحملوا المندبيل إلى القسطنطينية ، وخرج البطريرك ورجال الدين والدواة لاستقباله في موكب كبير^(٣) . وما زالت الأمور تسوء والحكم يزداد فساداً ، وتوقف جهاد الروم ، ونهب الحجاج وقطعت الطرق ، وأخذت دعائم الدولة تتداعى تداعياً شديداً ، ولم يلبث توزون القائد التركي للمتقي أن غدر به ، فقبض عليه وخلعه ، لقاء ستمائة ألف دينار أخذها من أحد الطامحين إلى الاستيلاء على الخلافة . وتولت الجارية الشيرازية «حُسن» سمل عينيه بيد غلام لها سندی . وعاش بعد خلعه خمسين سنة وعشرين سنة^(٤) ، ومات توزون بعد خلعه بقليل .

ويخلفه المستكفي سنة ٣٣٣ بعد أن تأمر عليه مع توزون والجارية الشيرازية ، ونادراً ما كان يهناً بأيامه في الخلافة ، إذ كان يتقاذفه الترك وهذه المرأة الجشعة ، فلم يهدأ له بال . ولم يدبر عليه عام في خلافته حتى دخل بنوبويه بغداد وصارت

- (١) النجوم الزاهرة ٢٧٤/٣ وما بعدها .
 (٢) النجوم الزاهرة ٢٧٠/٣
 (٣) الهداني ص ١٣٥ والنجوم الزاهرة .
 (٤) الهداني ص ١٤٢ والنجوم الزاهرة .
 ٢٧٨/٣ ومتر ٥/١ .
 ٢٨٢/٣ ومتر ١٦/١ .

إليهم مقاليد الأمور ، وسرعان ما طلبوا إليه أن يخلع نفسه ، فنزل على مشيتهم ،
غير أنه اشترط ألا يقطع شيئاً من أعينائه ، وكان المطيع أخو المتقى هو الذى خلفه
فأمر بأن تُسَمَّلَ عيناه انتقاماً لأخيه . وبذلك انتهت الحقب التى استولى فيها
الأتراك على مقاليد الخلافة العباسية ، وأنزلوا بالخلفاء ما لا يطاق من الذل والهوان .